اللعنة!

رواية لبنانية عصرية

892.73
G4415L4
c.2

تأليف

الخوري مارون غصن

استاذ الخطابة ومدير المحفل الادبي

في كلية القديس يوسف

الحائز وسام المعارف

حقوق الطبع محفوظة للمطبعة

67917

بيروت

المطبعة الكاثوليكية

اللَّعنة !

روايةٌ لبنانيَّة عصرية

تأليف

الخوري مارون غصن

استاذ الخطابة ومدير المحفل الادبي

في كليَّة القديس يوسف

الحائز وسام المعارف

حقوق الطبع محفوظة للمطبعة

892.78
G4145lA
c. 2

67817

Cat. April 1948

بيروت

المطبعة الكاثوليكية

١٩٢٧

المقدّمة

رواية لبنانية، عصرية. تصوّرنا وقوع حوادثها في ميروبا وبيروت. تحبّبُ إلينا أرض الجدود، وتُرينا ما في لعنة الاب لبنيهِ من وخيم العاقبة؛ وتعلّمنا أن لا راحة للبنين في هذه الدنيا، ولا هناء حقيقي، إلّا ببركة الوالدين.

الخوري مارون غصن

الفصل الاول

الاب

نحن الآن بلبنان، في أحد ايام نيسان، والشمس عند الأصيل، تُرسل أنوارًا يُشعُّ فيها السرور: لأنها أنبتتْ في لبنان ملايين البذور، وأبرزتْ في المروج ألوف ألوف الازهار.

ساعة من أبهج الساعات: الربيع باسطٌ على الأرض جمالهُ الساحر؛ وميروبا، تلك القرية البهيّة، المحاطة بالاكام، الجالسة على أكتاف صرود كسروان، ونهر العسل يجري عند أقدامها، وعين الصوّان، وعين الشرقيّة، وعين التنّور، وسائر هاتيك العيون، تتدفّق مياهها جارية تحت أغصان الصفصاف واشجار الداب والتوت؛ والنسيم يلاعب غابات صنوبرها؛ وحراجل وفاريًّا، تنظران الى تلك الشقيقة والجارة، نظرة غبطة وسرور؛ وقطعان الماعز سارحة قبالتها، على مطالّ «كفردبيان» وشبّابات الرعيان تشارك العصافير في التسبيح والتغريد؛ وصنّين مكتسٍ ثوباً تتغيّرُ ألوانهُ من أحمر الى أزرق الى لازوردي الى بنفسجي: مشاهد يكاد يعجز القرم، وسرور، والصليبي، وفروّخ (١ عن رسم ما يحاكيها.

وعند مدخل القرية، في الطريق الآتية من فيطرون، المارّة بمصيف المرسلين اللبنانيين، مشاهدُ جبّارة، انتصبت فيها جبالٌ من صخور رماديّة اللون،

---

١) هؤلاء المصورون الاربعة هم أشهر المصورين العصريين في لبنان الكبير.

جلس بعضها على بعض، ونبت في شقوقهـا العفص والسنديان.

على هذه الطريق، حيث كانت شمس الأصيل تُرسل أواخر اشعتها، كان رجل يسير الهوينا. وكلّما مشى بضع خطوات، يقف هنيهةً يستريح، ويرسل النظر الى تلك الأَودية والاكام، كأنه يبحث عن شخص يعرفهُ. وكنت ترى في عينيه عاطفة رجاء ممازجةً يأس. كرّر النظر مرّاتٍ، فلم يجد أحدًا، فتنفس الصُعَداء، وواصل المسير.

هذا الرجل شابٌ، لا يجاوز الثلاثين من عمره، ذو قامةٍ مديدة وعافية جبلية؛ لكنّ الهموم التي كابدها، والمرض الذي نزل بهِ، أنهكهُ وجعلاهُ يبين أكبر سناً.

وكان لابساً على الزيّ الافرنجي ثياباً زرقاء رثّة، وبرجليه حذاء عتيق مُقطّع. ولو ان هذا الشاب كان في ملابس نظيفة، لظهر حسناً جميلًا؛ لكنَّ ثيـابهُ القذرة أظهرتْهُ كأنه أحد الدّوارين. وكان على كتفهِ قضيب سنديان اقتطعهُ حديثاً، وفي طرف القضيب تدلّتْ صرّةُ ثيابٍ مغلّفة بقماش رمـادي اللون.

وصل الشاب الى مدخل القرية، فعجّل في السير ولم يتّبع الطريق العامّة المؤدية الى باطن القرية، من جهة عين الصوّان، خشية أن يلقى الشيخَ اسكندرَ الخازن: فانّ هذا الشيخ المشهور — كسائر آل خازن — بكرم الأخلاق وحبّ الضيافة، لا يدعُ أحدًا يمرُّ من تلك الطريق، إلا ناداهُ: «تفضّل! تْعا شراب سيكاره! ميّلْ ستْرحلك شْوي!» ولا يزال بهِ حتى يدخله الى بيتـه، أو سُرادقهِ، ويُضيفهُ، ويأخذ يتقصّى في البحث عن اسمه، وعمله، ومن اين هو آتٍ، والى اين هو مـاضٍ، وعمّن لقي في طريقه، الخ. ثمَّ يقصّ عليهِ من النوادر والفكاهات ما يُلهي المشغول عن شغلهِ والمسافر عن سفرهِ.

لذلك تنحّى الشاب عن تلك الطريق وتسلّق الأكمة التي عن شماله، كأنهُ

يريد ان يدخل القرية خفية. وفيما هو صاعد، رأى امرأةً مسنة، فأنزل قبعتهُ الى عينيه وسار خافضاً نظرهُ. فحيّتهُ المرأة بالسلام، فردّ عليها التحيّة بصوت منخفض، وواصل السير.

ولمـّا بلغ رأس الأكمة، توقّف ونظر حوله، ثم تحوّل الى غير طريق، وتوغّل في الجبل بين الصنوبر الكثيف، حيث أطلّ على بيوت القرية. هناك زاد تأثّرهُ، فأنزل القضيب عن كتفهِ، وجثا على الأرض، وبسط ذراعيهِ وهتف بصوتٍ متقطّع: «ميروبا! ... ميروبا! ...»

ولبث بضع دقائق، وحاول أن يمسك دموعه، فلم يستطع. ثم وقف لينزل الى القرية، فراح يقدّم رجلًا ويؤخّر أخرى. ثم نظر الى ما ورائه كأنّهُ يريد الرجوع؛ لكنّهُ تشدّد وحوّل وجههُ الى القرية ووقف. هكذا وقف آدم ينظر من بعيد الى ذلك الفردوس الارضي.

وبعد إقدامٍ وإحجام، هتف قائلًا في نفسهِ: «هيّا، ايها الجبان! تشجّع، ولا ترجع!»

فمشى قاصدًا الى القرية، فمرّ بفتًى يحرث حقلًا هناك، فسألهُ: «هل يزال يوسف ابو خليل ساكناً في هذهِ القرية؟»

اجاب الفتى:

— نعم وهذا البيت المظلّل بشجرة السنديان بيته.

قال الشاب:

— اشكرك.

ومضى، وهو يقول في نفسه: «هذا البيت أعرفه!» وبعد خطوات، رأى في مرج هناك ثلاث بقرات وبغلةً وحمارًا. فقال: «هذا الحقل لنا. وهذه الحيوانات الفارهة لأبي.» وشعر من جديد بضعف ساقيهِ، فاستلقى على الحضيض تحت ظلّ شجرة دلب، وجعل يده على جبهته وراح يتأمّل.

اسم هذا الشابّ سليم ؛ وتاريخ حياتهِ بسيط . قد غرَّهُ حبُّ السكن في بيروت — شأن كثير من شبَّان الجبل — فقصد اليها . لكنّه ما أقام بها طويلًا ، حتى أدرك انهُ كان في وهم ، وأن ليس بالسكن فيها سعادة .

ولم يكن سليم فتىً رديئاً ولا كسلان ؛ لكنّه كان ضعيف الارادة ، شبيهاً بالفراشة ، يميل الى ما يُحرق . ربَّاهُ أبٌ لهُ قاسٍ ، ولكن صالح ، وأمٌّ تقيّة حنون . فكان يأكل حسناً ، ويشتغل قدر طاقته . بلغ العشرين من سنّه ، ولم يُبتلَ بتجربة قطّ . وحدث ان أرسلهُ أبوهُ مرّةً الى بيروت ، لشراء بعض حاجات ، فجذبتهُ المدينة بحركة أسواقها وكثرةِ ملاهيها وحسن ملابس سكّانها ، الى غير ما هنالك من المظاهر التي تبهر عيون الأغرار وتخدع أمثال من رأوا المدن اوّل مرّة ؛ فحسبَ ان العيش في المدن ألذّ ، والعمل فيها أيسر .

رجع سليم الى قريته ، ميروبا ، وعاد الى مزاولة الحراثة تحت مناظرة ابيه ؛ لكنَّ مشاهد المدينة استمرّتْ ممثَّلة لعينيهِ ، فصار يظهر كأنه حالم مخطوف : فاذا قاد الفدّان الى الحقل ، جلس بعض الأحيان على حافة المحراث يستريح — وليس في ذلك شرّ ، اذ لا بدّ للفلّاح والفدّان من الراحة — ؛ لكنَّ العمل صار لا يطيب لنفس سليم ، فراح يكثر من طلب الراحة ويشعر بضجر وسأم في هدوء الحقول ، حيث لا يسمع إلّا تنادي الفلّاحين حيناً بعد حين ، وخوار البقر وعواء الكلاب . فضاق بذلك السكون صدرهُ ، وصار ، اذا اجتمع بالقرويين ، أحسّ بنفور منهم ، وتقزّز من رائحة ثيابهم ، ورأى أنَّ ملابسهم خشنة وليست على زيّ ملابس أهل بيروت . . . ؟ ! فصار يقصّر في واجبات عمله ويهمل ما كان شديد العناية بهِ قبلًا .

وشعر يوسفُ ، ابوهُ ، بانقلاب اخلاق ولده ، فتأسَّف كلّ الأسف ، وقال يوماً لامرأته :

— يا يوسفيّة ، سليم قد تغيّر !

فقالت لهُ :

— هذا لا يدوم ، يا عزيزي يوسف .

وكان الأب ذا نظر واختبـار ، فهزَّ رأسهُ مشيراً الى أنهُ مطّلع على أفكار ولدهِ .

وقال يوماً لابنهِ :

— هل أنت مريض ، يا سليم ؟

— لا ، يا أبي .

— اذن فغيّر سحنتك هذه ، ولا تكن كئيباً . فإن كنت ضجِراً ، فلا أمنعك عن التسلية والتنزُّه . عندك « المنجيره » ، وأنت فيها ماهر . واذا صارتْ لا تكفيك ، فلك أن تذهب الى الصيد ؛ وهذهِ بندقيّتي ، وهي من عهد ابراهيم باشا ، وجنسها جيّد . ويسعك ايضاً أن تذهب الى النهر وتصطاد سمكاً ؛ بل لك أن تدعوا الشبان أصحابك وتتسلّوا هنا في الجنينة بلعب « الدامة » او « بالحكم » او بالسيف والترس . هذهِ كلُّها لُعبٌ مفيدة وجيّدة . أنا أُحبُّ الشبيبة ، ولا ألوم المسرَّات النزيهة . ثم إذا كنت تشاء أن تتزوَّج ، فأنا لا أتصدَّى لك . فقد بلغتَ السنّ الموافق . فـاذا كنت تعرف فتاةً ذات أخلاق حسنة ، فاقترنْ بها ولا تهتمّ لنا . ان أخاك « وديعاً » لا يلبث أن يقوم مقامك في أشغال « العودة » . وان البنين ، يا ولـدي ، كفراخ العصافير : فهذهِ ، اذا اشتدَّتْ اجنحتها ، غادرتْ آباءها وأمّاتها وطارتْ لتنشئ عشاً جديداً .

أجاب سليم :

— لا ، ليس في نيّتي أن اتزوَّج الآن .

وكان في القرية فتاة تُدعى « وردة » ، نضيرة الوجـه كاسمها ، صالحة النفس ، حسنة الاخلاق ، محبّة للعمل ، وهي وحيدةُ لأبويها . وكان سليم ،

فيما سلف، يُسرّ بمحادثتها. وكان أبواهُ راضيين عن هذهِ المودَّة، وأبواها لا يرفضان لفتاتها شاباً مثل سليم، قويّ البنية، ماهراً في جميع فروع الحراثة. وسليم لم يقطع زيارتهُ لبيت وردة؛ لكنَّهُ لم يكلّمها قطّ عن الزواج: لانهُ بعد عودتهِ من بيروت صار لا يعرف الى ايّ جهة من الأَرض يحوّل نظرهُ، وأصبح يأنف الوحل لاصقاً بحذائهِ الجبلي، ويستنكف من الغبار الصاعد من البيدر عند تذرية القمح، ويتقزّز من دخول المراح، ومن رائحة البقر وجميع أعمال الحراثة.

في ذات يوم هبَّتْ عاصفة شديدة، ونزل المطر على أثرها شديداً. فعاد سليم الى البيت مبتلًّا. فأسرعت أُمهُ وقدَّمت لهُ ثياباً ليغيّر. فقال لها متضجّراً.

أُفٍّ لهذهِ المهنة التي لا تُقضى الَّا في حرّ الشمس أو تحت المطر!

أَجابهُ ابوهُ، وكان المطر قد أدركهُ ايضاً:

— ما العمل؟ تلك هي العيشة، يا بنيّ.

اجاب سليم:

— كان يمكن ان تكون أفضل من ذلك.

قال الأَب:

— فيها، ككلّ مهنةٍ، حسناتٌ وسيّئات. وهل يكون وردٌ بلا شوك. المطر لازم، فهو المرُوي الاشجار؛ والشمس لا يُستغنى عنها، فهي المنضجةُ للسنابل. ولولا الشمس والمطر، هل كنت ترى هذا البستان الذي أمامك، مزهراً؟ فعمَّا قليل تنوء أشجارهُ بتفَّاحنا المشهور.

أجاب سليم:

— واذا أُصبتُ، بعد هذا المطر، بداء الجنب أَو بغيرهِ مرضاً؟

فضحك يوسف وقال:

— اليك عن هـذا الخوف! فقد طالمـا تساقطت عليَّ الأَمطـار

وما أصبت بأذى. سليم، مرّت عليك ايام، منذ عودتك من بيروت، وأنت على غير ما كنت عليه: فاني أراك تشتغل مكرهاً؛ وهذا لا يُرضيني، لان ما نعملهُ بضجر، لا ينفع شيئاً. قل لي هل صرت تأنف من مهنتنا؟

وكان سليم يخشى غضب أبيهِ، فلم يجب بشيء. ولا أطلعهُ على مكنوناتِ صدره.

قال الاب:

— سكوتك يدلّني على ما في باطنك! ويلك، ايها الشاب العاقّ! أنت ترغب في الاقتداء ببعض الشبان الجهّال، وتحبّ الذهاب الى بيروت، وتريد ترك معاونة ابيك وامك اللذين كابدا الاتعاب في تربيتك! ألا قل لي اي شيء ينفّرك من مهنتنا هذه؟

اجاب سليم:

— كل شيء! العمل فيها شاقّ، والنتيجة قليلة. وليس من مهنةٍ تتطلّب من العناء ما تتطلب مهنتنا! في الصيف لا نكاد ننام قبل الساعة العاشرة ليلًا؛ ونضطر في الغد أن ننهض للعمل قبل الصباح! ثم أليس الحصادُ عملًا لا يطاق؟! وفي أيام الدراسة، ألا نأكل من الغبار فوق ما نأكل من الخبز؟! ويا ليت لكل ذلك التعب أجرة حسنة! ونحن في خوف دائم على الغلال من المطر والثلج والبرَد والبرْد والعواصف! ذلك فضلًا عن توقّع ضرباتٍ أُخر، من مثل موت الماشية والدواب، وهجوم الجراد، ودبيب الديدان والأُرَض (الملوش).

أمّا في المخازن او في المكاتب، فالحالة على عكس ذلك، حيث يكون المُرء واثقاً بان يقبض أجرته، وهو لا يخشى شمساً ولا يخاف مطرًا. هناك العمل منظّم مُرتّب، يُبدأ بهِ ويُنتهى منه في ساعة معيّنة. فضلًا عن أنّ العمّلة، في جميع البلدان الراقية، يسعون لتكون ساعات العمل في النهار ثمانياً ليس غير؛

وانهم يصلون الى بُغيتهم .

اجاب الاب :

— أجدُ أن ثماني ساعاتٍ عملاً ، في النهار ، لا تزال كثيرة على الكسالى . . . أراكَ تُظهر مصاعب مهنتنا ، ولا تظهر شيئاً من فوائدها . نعم ان شغل الفلّاح شاقّ ؛ لكنه اذا شاء ان يشرح صدرهُ يوماً ، ويستريح من عناء العمل ، فلا يضطر الى استئذان أحد : فهو حرٌّ وربُّ أعماله ، ولا يعرف سيّدًا غير الله . ولا يحتاج في كل صباح ان يمضي الى السوق ليبتاع قوته : عندهُ القمح في الأَهراء ، والخضر والثمار في بستانه ؛ والقنّ غاصٌّ بالبيض الغريض (الطاظا) والدجاج ؛ والمراح يفيض جبناً وحليباً خالصاً وسمناً صحيحاً . أتريد أن يكون الفلّاح ، وهو بين جميع هذهِ الخيرات الدافقة ، غير سعيدٍ ولا راضٍ ؟ !

آه ! ان المرءَ كثيرًا ما يخطئُ في أحكامهِ ! وهذه هي حالتك ، ايها الولد الضالّ ! نعم ان الغلّة عرضةٌ لآفات الفلك ، وقد يحدث أن تجيء سنة محْل ؛ ولكن تخلفها سنة خصب تنسي الأولى . والبرهان على ذلك أني ، بعدما كنت في شبابي اجيرًا عند أحد المشايخ ، صرت الآن ملّاكاً حرًّا . ولو أن هذا البستان المجاور لبستاننا يُطرَح للبيع ، لوسعني مشتراهُ بما وفّرتهُ من دخل الحراثة . أجل ، يا سليم ، نحن الآن أغنياء ؛ وأنت يمكنك ان تصير غنيًّا ، اذا شئت ؛ ويمكنك ان تعقد زواجاً حسناً . آه ! يا بنيّ ! كلامك قد سبّب لي اليوم أشدّ ألم ! قد بذلتُ وسعي لأُحبّب اليك الأَرض ، وانت الآن تحتقرها ! ولكن اذا هجرتنا ، فماذا تريد ان تعمل ؟

اجاب سليم :

— أستخدم في السكة الحديدية .

قال الاب :

— مهنة حسنة ، نظيفة ! أتلك هي شهوةُ قلبك ، أن تسوق المركبات

وتمسح الدواليب ، وتعرّض نفسك للأخطار ؟

قال سليم :

— يمكنني ايضاً ان ادخل مكتباً ما ، فخطّي جيّد .

أجاب الاب :

— ويمكنك ايضاً أن تكون « خواجا » ، وتلبس « ريدنكوت » ، وتحمل عصاً ، وتبهر أهل القرية متى رجعت اليها . ولكن قد تموت ايضاً في بيروت جوعاً ، فان امرأتك تفرغ جيبك ، وأولادك تلتزم بأن تخرّجهم في المدارس ، حيث لا تستطيع أن تجعلهم حُرّاثاً مزارعين . خلاصة القول افعل ما تريد فانك اذا كنت قد أرسخت هذا في عقلك ، فجميع براهيني تذهب سدى ولا تقنعك . لكن اعلم انك اذا خالفت أمري ، ونزلت الى بيروت ، فلن تدخل بيتي أصلاً !

وكان الغضب قد بدأ يستولي على الاب ، فخرج من البيت .

فقالت يوسفية ، والدمع في عينيها :

— اذن ، يا ولدي ، تريد ان تهجرنا ؟ فكّر في الحزن الذي يسبّبهُ لنا ابتعادك !

أجاب سليم :

— تُرى ، أفي بيروت غيلان تبتلعني ؟ سأعود متى توفّقت في أشغالي .

قالت الأم :

اذا استولت عليك بيروت ، فلا تعود تفلت منها . قل لي ، يا سليم ، أصرفت فكرك عن وِرْدة ؟

اجاب سليم :

— لو كنت صاحب مركز ، ما تأخرت عن الاقتران بها ؛ ولكن يمكنني ذلك فيما بعد .

قالت الام :

— ان وردة — ولا ريب — تأبى الابتعاد عن أهلها . وهي فتاة رزينة ، لا ترضى ان تستبدل معيشتها بمعيشة مدنية .

اجاب سليم :

— ومن أكّد لك ذلك ؟

قالت :

— هذا أكيد وثيق ، فأنا أعرفها جيّداً .

وكان سليم يودّ التخلّص من هذا الحديث ، فقال :

— دعينا الآن من هذا .

ومضت الايام ، واستمرّت الحال على ما هي عليه ، وسليمٌ عابس صامت ، وابوهُ يزيد غيظاً ، حتى انه ما كان يملك اللسان عن التفوّه بكلمات تجرح سليماً فتزيدهُ إصراراً على عزمهِ .

وتعاظم الخلاف ، وانتهى الأمر يوماً بيوسف ان صاح بابنهِ قائلاً :

— ايها الشاب العنيد ! انت لا تريد ان تشتغل ؟ فاذهب الى لعنة الله ، ولا تريني وجهك بعد الآن ! خرج هذا الحكم من فم الاب ؟ ولكنه حكم قابل الاستئناف . فقد كان بوسع الابن ان يلتمس المغفرة من ابيه ، فيفتح له الاب ذراعيه ، وتعود الامور الى مجاريها . لكن سليم لم يستغفر ؟ بل كان يعدّ نفسه سعيداً بان يُلقي اللام على ابيه ، فارتضى بالحكم وخرج مسروراً كأنهُ ماضٍ لافتتاح عالمٍ جديد .

ولم يستطع ان يودّع وردة ، لانها — لسوء حظه — كانت ، في ذلك اليوم ، قد مضت الى « فاريا » لتعود عمتها « مرتا » وتخدمها ريثما تشفى . ولو ان سليماً شاهد وردة ، لكانت لامتهُ وثنتهُ عن عزمه ؟ لكنّ سوء طالعهِ قضى بان تتفق جميع الظروف على بقائهِ في عنادهِ .

نعم ، تأسف سليم على سفره دون وداع وردة ؛ لكنه قال في نفسه : « مالي واللحاق بها الآن الى فاريا ، فسأكتب اليها . ومتى صار لي مركز لائق ، أعود ، فنقترن .

وخرج من البيت خالي البال ، مسروراً ؛ لكنه ما ابتعد ، حتى فطن أن جيبهُ يكاد يكون أخلى من باله وأفرغ . . . وهل من واجبات الاب ان يهتمّ لامثال هذا الابن العاصي ، ويجهزهُ بالمال لسفر كهذا ؟ !

لكن سليماً كان ، قبل ايام ، قد وفّر خمس ليراتٍ سورية من خرج جيبهِ ؛ وامهُ ، ساعة الوداع ، دسّتْ في يدهِ ورقة بخمس ليرات ، فصار معهُ عشر ليراتٍ سورية ليس غير . ومن لم يكن في يدهِ غير هذا المبلغ ، فلا يستطيع ان يعلّل النفس بفتح عالم جديد .

وكان في نيّة سليم ان يستأجر بغلاً يركبهُ الى فيطرون أو عشقوت ، ومنها يركب سيارة توصلهُ الى بيروت ؛ لكنه عاد ففكر أن حالتهُ المالية لا تأذن لهُ بالتوسّع في النفقة ، ولا في النزول الى بيروت توّاً . فسافر ماشياً الى فيطرون ، ومنها قصد الى ريفون ، حيث اشتغل خمسةً وعشرين يوماً عند رئيس المدرسة الاكليريكيّة في اقتطاع الاشجار اليابسة من غابات الوقف . فزاد المبلغ الذي معهُ ، وواصل السير الى بيروت ماشياً .

وهناك تحيّر في ما يعمل . فالتمس الدخول بين عملة السكّة الحديدية ، ولبث يتردّد الى مدير العمل في المحطة الكبرى . فوعدهُ المدير بان يقبلهُ ، اذا ترك احد العملة عملهُ . فخشي سليم ان يطول عهد البطالة عليهِ ؛ وحالتهُ لا تسمح لهُ بأن يبقى بلا شغل . فتوجّهَ الى ابن عمٍّ لأمّهِ ، كان قد هجر ميروبا منذ عشر سنين ، ونزل الى بيروت يشتغل في معمل حياكة . فتوسّط لهُ ابن عم امّهِ ، فقُبل في المعمل .

لكنّ سليماً وُلد فلّاحاً لا حائكاً . فبذل وسعهُ ليُحسن القيام بهذا العمل

الجديد فلم ينجح ، فطُرد بعد ثلاثة اسابيع .

فراح يتأمل في ما صار اليهِ ، وتأسف — وهذهِ اول مرّة — لتركهِ المنزل الابوي ومغادرتهُ تلك الراحة التي كان يتمتّع بها في قريتهِ .

ورأى انهُ ، اذا عاد الى ابيهِ ، وجد باب البيت في وجههِ مُقفلًا ؛ واذا انتظر الخدمة التي وُعد بها ، في المحطة الكبرى ، أهلكهُ الانتظار جوعاً .

ولو كان سليم ألطف مدخلًا ومخرجاً ، وأوفر تأهُّباً لخدمة الغير ، لاستطاع كغيرهِ أن يحصل على مركز ؛ لكنهُ اذ ابتعد عن أهلهِ ، وجد نفسهُ في أخلاق ما فارقتهُ ، في الواقع ، من قبل : أي أخلاق ابن قوم مضى عليهم في حراثة الارض عهد طويل ، فكان صلباً كسكّة محراثهِ .

قصارى الكلام لم يبق لهُ الّا العود الى صناعةِ الحياكة ، رغم ما ألقت في قلبه من الكراهية لها ؛ لكن الضرورة الزمتهُ بالرجوع اليها . فقصد الى معلّمه السابق الذكر ، فلم يجد عندهُ عملًا . فراح يبحث ويفتش عن غيره ، فلم يتوفق ، لانّ الكساد كان قد ضرب أطنابهُ ، والعملة في معامل الحياكة فوق المطلوب . في ختام الامر دخل أجيرًا عند بستاني ، في رأس بيروت ، قرب المنارة . وهناك اتسع له مجال التفكرّ ، فكان ، وهو يقتلع الفجل أو اللفت ، يقول : « ايّ شيء أحوجني الى ترك أرض ميروبا والمجيء الى هنا حيث أقضي نهاري من الصباح الى المساء في العمل وحرث الارض وقلب التراب ؟ !

ولم يصل اليهِ خبر من أهلهِ منذ غادر القرية . وقد كتب مرارًا الى أمّه لمعرفته بحنانها وحبّها لهُ . وهي كتبت اليهِ ثلاث مرات ، ثمّ انقطعت عن مجاوبتهِ . فلا ريب أن الاب منعها عن تلك المكاتبة السرّيّة .

امّا وردة ، فلم يكاتبها ، لانه كان ينتظر أيّاماً أفضل ، فلم يتحقق أملهُ .

من ذلك الحين بدأ يرى نفسهُ وحيدًا بين قوم لا يجد فيهم من يهتمّ لهُ .

فأخذ يتأسف على اتباعهِ طيش الشباب وتركهِ المنزل الابوي. وكثيراً ما اشتدّ عليهِ الحزن فبكى!

ولو أن غيرهُ شاباً وُجد في هذه الحالة، لأصابهُ البلَه؛ لكنّ سليماً لم يكن غرًّا، فنظر الى ما حوله ورأى بعينيه، وقد أزيح عنهما كل ستار، حالة الدنيا كما هي تماماً، سمجةً شوهاء ملآى من الانانية، وخاصّةً في عصرنا، هذا، حيث لا يتأخر الانسان، اذا شاء التسلّق على اكتاف الناس، أن يطأ، حتى على جثث جيرانه واصدقائه. يفعل ذلك، ولسان حالهِ يقول: دع مكانك، لأحلّ محلّك! يتدافع الناس ويتهارشون. واذا سقط أحدهم وداسته الارجل، فلا يهتمون له، وقد يجهزون عليه؛ فصح فيهم قول الشاعر:

يهارش بعضهم بعضاً عليها

مهارشة الكلاب على العقيره!

وَجد سليم ان الدنيا أشبهُ بمكان فيهِ الحظّ جالسٌ على عرشهِ، معصوبَ العينين بحسب عادته، وأمامهُ رجمة من ذهب، وكلّ انسان يُسرع الى ذلك الجالس على العرش متملّقاً. يدنو المصوّر بريشتهِ، والكاتب بقلمهِ، والمحامي بفصاحته، والفتاةُ بفضيلتها: كل شيء في عصرنا معروض للبيع! ولم يبق شيء محترماً مكرّماً!

وكانت نفس سليم لا تزال أبيّة رقيقة الاحساس. فكان يشعر، أمام تلك المشاهد، بتقزّز، كمن تناول دواء أُجاجاً فجاشت منهُ نفسه، فودّ أن يقذف ما شرب. الله على ميروبا! وحقولها! وسكّان تلك الجبال العالية، ذوي القلوب الذهبيّة، رغم ما هم عليهِ من الخشونة.

مرّ على سليم ثلاث سنين، وهو على تلك الحالة الموحشة. وقد تنقّل من معامل الحياكة الى حراثة البساتين، في بيروت وضواحيها؛ ولم يصر أفضل مما

كان عليه عند وصولهِ الى بيروت : فان الطعام والسكن والملبوس كان يذهب بجميع أُجرته . ولم يمكّنهُ جيبهُ من الذهاب لحضور مشاهد الصور المتحركة ، إلاّ مرارًا قليلة . وكانت الاوهام قد تبدّدت من أمام عينهِ ، فعاد لا يشتهي إلاّ أن لا يموت في أحد المستشفيات ، كما حدث لأحد رفقائه في الحياكة ، واسمهُ حبيب الأَسياوي . كان كسليم قد هجر احدى قرى البترون وهبط الى بيروت . وكان سليم يجد فيهِ تعزيتهُ الوحيدة . ولمّا صار في النزاع ، أعطى سليماً بعض تذكارات ، بينها «تذكرة النفوس» .

وفي تلك الايام ، هجم ثوار الدروز على حاصبيّا وراشيا بقيادة حمزة الدرويش ، فقتلوا ونهبوا وأحرقوا وفظّعوا . . . فأرسلت الحكومة المنتدبة عساكرها الى ذلك القضاء ، ومعهم بعض المتطوعة من اللبنانيين .

وكان العيش قد ضاق بسليم ، فتطوّع مع من تطوّع ، ومضى للدفاع عن ابناء الوطن ، وهو آمل أن يلقى الموت في تلك الأرض فينجو من شقائه . فأُصيبَ هناك برصاصة في كتفه . فحُمل الى المستشفى وبقي فيهِ زماناً طويلاً ، ثم خرج مهزول الجسم . وبعد حين أُصيب بمرض الزائدة ، ذلك المرض الذي فشا في ايامنا وأُصيب بهِ كثيرون . فأجروا لهُ عملية جراحية . وبعدها انتظم في سلك الجندية بلبنان ، فعُيّن في مخفر على طريق صيدا .

في كلّ ذلك لم يشعر ذلك المسكين بسوى الالام والأَحزان . وضعف جسمهُ وقلّت عافيتهُ ، فاستولى عليهِ القنوط .

وكان يصل الى رفقائهِ ، في كل اسبوع ، وبعضهم في كل يوم ، رسائل من أهلهم ملأى من التحيات والشعائر الصادقة ؛ وكثيرًا ما كان بعضهم يجد في طيّ رسالتهِ اوراقاً ماليّة يستقبلونها بكل ترحيب . أمّا هو ، فلم ينل من أهلهِ قُصاصة ورق ؛ واهلهُ انقطعت عنهم أَخبارهُ . وكان كثيرًا ما يفكّر في اضطراب قلب أمّه من نحوهِ . وعزم مرارًا ان يكتب اليها ، فكان يعمد الى

القلم ثم يلقيهِ من يدهِ.

ولمّا انتهتْ ايام جنديّته، عاد الى بيروت، وحاول استمالة حسن الحظّ اليه، فذهبت محاولتهُ سدى باطلًا؛ ورأى العملة الحاذقين لا يكادون يجدون عملًا. فلبث زماناً يُنفق من الدراهم التي حصّلها في الجندية، فذابت ذوبان الثلج تحت اشعة الشمس.

وكان ذات يوم يتمشّى على «ضهور الاشرفيــة»، فصــادف فتًى من «حراجل»، جارة ميروبا، فسألهُ، فاطلعهُ على شيء من أخبار أهلهِ. فعرف انّ اباهُ وامّهُ على خير وعافية، وان أخاهُ بولس قد دخل الرهبانية البلدية، وأن شقيقتهُ سليمة قد اقترنت بشابّ من «وطا الجوز». فأثّرتْ هذهِ الاخبار في قلبه، فلم يملك دموعهُ. وعند الوداع، قال سليم لابن قريته. «اسألك، اذا عدتَ الى ميروبا، أن تكتم خبري، إلّا عن امّي، وأرجو منك أن تلثم يدها عنّي.»

مــن ذلك اليوم استولى على صاحبنا سليم مرض الصبــابة الى الوطن، واشتدّ بهِ الشوق الى رؤية ميروبا، والنظر، ولو عن بعد، الى عبوس ابيهِ ولطف وجهِ امّه وشقيقتهِ، وأن يملأ عينيهِ من مشاهد صتين، تلك المناظر التي أحبّها، في ما سلف، وأن يسعد بمشاهدة جميع ما في قريتهِ، ثم يموت.

فحمل نفسه الى مكتبة موسى صفير واولاده، وسأل من فيها عن موعد سفر السيّارات الى فيطرون. وعنــد المساء ركب قــاصدًا الرجوع الى تلك الصرود التي كان يجب عليه أن لا يغادرها أصلًا. فوصل الى فيطرون، قبل الغروب بساعتين. ولم يتجرّأ على مواصلة السير الى ميروبا، مخافة أن يعرفــهُ أهله. فتوقّف في فيطرون، وحاول أن يجد لهُ عملاً فيها. ولكن كان ذلك في فصل الشتاء، ولم تكن الارض في حاجة الى حراثة. فاضطرّ أن يساعــد بعض العمــلة في تكسير الحصى لتحصيب الطريق ما بين ريفون وفيطرون.

وما هي غير ايام حتى أُصيب بذات الجنب. فأشفق عليه الطبيب « فيليب مبارك »، وأتى به الى بيته، ولبث يعالجهُ ويعتني بهِ مجّاناً، نحواً من شهرين، حتى تعافى.

ولم يكن في جيبهِ غير سبع ليرات سورية. فرأى حينئذٍ أن لا محيد لهُ عن الاسراع في العود الى ميروبا. وكان يخشى الموت قبل ان يمتّع عينيهِ برؤيتها. فأخذ الطريق، عند الصباح، وسار ماشياً.

لذلك رأيناهُ في اول القصّة، تعباً منهوكاً، وعلى وجهه آثار الهزال واضطراب البال. فجلس على رابية من روابي ميروبا، وراح يفكّر في ما يعمل. أيدخل القرية ويقرع باب منزل ابيهِ، فيردّهُ ابوه خائباً، أم يتجهُ الى فندق الياس جرجس، فيبيت ليلتهُ هناك؟ مسكين! ما كان أشدّ همومهُ في تلك الساعة، وقد اجتمعت أمام عينيهِ جميع المذلاّت التي عاناها منذ غادر قريتهُ!

وفيما هو كذلك، اذ سمع صوتاً، فرفع رأسه، فرأى في حقل محاذٍ للطريق، رُجلاً مُسنّاً يحوّش بقرهُ، وهي لا تعجّل في التجمّع، وقد أنعشها نسيم المساء فودّت البقاء في الحقل، فراحت تشبُ مُرخيةً آذانها، ورؤوسُها بين يديها، وأرجلها في الهواء تمرح فرحاً. فناداها الشيخ: « شقرا! أصبح! اسمر »!

فارتعش سليم اذ رأى انّ ذلك الشيخ هو ابوهُ... فنهض، وقلبهُ يضرب بسرعة، ورجلاه لا تكادان تحملانهِ... فشدّد نفسهُ. وكانت آثار التقوى لا تزال في قلبهِ، فرسم الصليب على صدرهِ وسلّم ذاتهُ الى الله... فتقوّى قليلاً، واتّجه الى باب سياج الحقل لينظر أباهُ. وأتى يوسف يقود البقرة شقرا برسنها، وأصبح وأسمر يسيران وراءها. ورأى سليم أباهُ حاملاً على كتفهِ عصا معلّقاً بطرفها حزمة كبيرة من العشب، وهو متضايق بها. فانتهز سليم هذهِ الفرصة، ودنا من أبيهِ ليخفّف عنه. امّا اضطرابهُ في تلك الساعة، فلا

يستطيع قلمٌ أن يصفهُ : فهو الآن أمام ذلك الاب الحبيب والرهيب معاً . ولقد كان يودّ ان ينطرح بين ذراعيه ويسألهُ المغفرة ؛ ولكنَّ عوامل شتَّى تنازعتهُ ، وأوَّلها الخوفُ من أن يُرَدّ . ولكن شعر بشيء من الفرح والسعادة اذ رأى من وجهِ أبيهِ ما لا يدلّ على ميل أو نفور ، فادرك أنه لم يعرفهُ .

فتشجع سليم واقترب من ابيهِ وقال :

— ايذن لي ، يا عمّ ، أن أحمل عنك هذهِ الحزمة .

فاجاب الاب :

— أشكرك واسأل الله ان يكثر من امثالك .

فارتكض قلب سليم فرحاً عند سماعهِ ذلك الجواب ، ومشى الى جانب ابيه . وبعد هنيهة سكوت ، قال :

— هذهِ البقرة وهذان العجلان من أجود ما رأيت .

فسُرَّ يوسف وقال :

— نعم هذهِ البقرة قد اشتريتها من العاقورة ، وهي من أصل جيّد ، وهي تعطي في كلّ يوم ستة ارطال حليباً . وهذه النواحي لا ينقصها الكلأ لكثرة مياهها ؛ ولكن الناس ما عرفوا الى الان ان يستفيدوا من خيرات الارض كما يجب .

قال سليم :

— جئت الى هنا افتش عن عمل . فهل تعرف أحداً يحتاج الى اجير ؟

فتردّد يوسف هنيهة وقال :

— انا كنت اودّ اتخاذ أجير .

فاهتزّ سليم فرحاً وقال في نفسه : « ترى ! هل استطيع ان أكون اجيراً عند أبي ، من غير أن يعرفني أحد ؟ » ثم التفت الى ابيهِ وقال متمتماً :

— اذا اردت . . . فأنا من الآن متأهب لخدمتك .

فهزّ يوسف رأسهُ، ونظر الى سليم نظرةً فيها استخفاف، وقال :

— ماذا تعرف أن تعمل ؟

— أعمل جميع ما تأمرني بهِ .

— مطاليبي كثيرة، ومرضاتي ليست هيّنة . وأرى من هيئتك أنّك صاحب صنعة، لا زارعاً فلّاحاً .

— أنا أعرف الفلاحة والزراعة، وجميع ما يتعلّق بها . وأظنّ أنّك ستكون مسروراً من خدمتي .

فابتدرهُ الاب وقال :

— من اي قرية انت ؟

ولم يكن سليم ينتظر هـذا السؤال، فتوقّف لحظةً، فخطرت ببالهِ « تذكرة النفوس » التي أخذها من المرحوم حبيب الأسياوي، وهي لا تزال في جيبهِ، فقال :

— أنا من أسيا البترون .

فاجاب يوسف بنغمة فيها شيء من الشكّ، وقال :

— أو ليس عندكم في، بلاد البترون، عمل ؟

اجاب سليم :

— قد قلّ العمل في نواحينا، ولا سيّما والمياه عندنا قليلة .

— أخاف أن لا تكون نشيطاً في الشغل، فتسبّب لي كدراً وارتباكاً .

— لا تخف ! وسترى من نشاطي ما يُرضيك كلّ الرضى .

— نعم قد يكون ؛ لكنّي لا أعرفك من ذي قبل . ولقد أزعجني أجيري الأخير وسبّب لي من المتاعب ما علّمني أن لا اتسرّع في قبول كلّ اجير، ولا سيّما اذا كان غريباً .

— يسعني أن أُطلعك على شهادات تشهد بنشاطي وحُسن سيرتي .

فأجاب يوسف، وقد تأسّف لانهُ أطال الحديث مع هذا الشابّ، قال:

— لا أشكّ في نشاطك؛ لكنّي لستُ مضطرًّا الى أجير. فقد سبقتُ ففكّرت في شابّ أعرفهُ، وهو يوافقني.

وأراد يوسف أن يتلطّف في رفض قبول الشاب، فقال له:

— يمكنك، يا اخي، أن تستخدم في القرية. فالفلّاحون لا يكثرون على الارض، مهما كان عددهم.

— وأخفى سليم ما شعر بهِ من خيبة الأمل، وقال:

— لك — ولا ريب — بنون يساعدونك؟

بنون مساعدون؟ لا، ليس لي الآن مساعد. لي ابن ترهّب في دير قزحيا، وابنتان، الاولى تزوّجت، وليست هي عندي، والأخرى تساعدني؛ نعم تساعدني؛ ولكن، أفتاة تكفي في بستان؟

فأدرك سليم أنّ أباهُ لا يعدّهُ من بنيهِ.

فتألم من ذلك؛ وزاد اضطرابهُ لأن اباهُ لم يذكر شيئاً عن امراته. فقال في نفسه: «لعلّ الاحزان قضتْ على أمّي، فماتت؟» ولم يجرؤ على سؤال ابيهِ عنها، فاكتفى بأن قال:

— أليس لك بنون بعد؟

اجاب يوسف دون ارتباك وقال:

— لا!

فحنى سليم رأسهُ. وكانت تلك الكلمة أشبه بسيفٍ على عنق المحكوم عليه.

ولبث الرجلان صامتين. وكانت هيئة يوسف عابسةً، وسيماؤُهُ جافية كأنهُ يتتبّع مشاهد حلم داخلي. وبعد هنيهة قال:

— كان لي ابن آخر .

— هل مات ؟ . . .

— ليتهُ مات ! . . . نعم ، لو مات ، لكنت الآن أخفّ حزناً وألماً . قد تركني ونزل الى بيروت . . . قد صار الشبّان في عصرنا يستنكفون من الأرض ، ولا يريدون ان ينحنوا ليحرثوها ؛ وانهم يجدون ذلك حقيراً شاقاً . فيا للأسف !

اجاب سليم :

— انت الان في حاجةٍ اليهِ ؛ فلو طلبت منهُ ان يأتي لمساعدتك ، فما أظنهُ يتأخر .

قال الاب :

— ربّما يأتي ؛ ولكن انا لا أُريد ؛ فضلاً عن أني لا أعرف أين هو .

— إذن أخبارهُ مقطوعةٌ عنك ؟

— لم يكتب اليَّ منذ غادرني .

— لا بدَّ من ان تكون قد وجدتَ فراقهُ طويلاً .

— بل أظنّ فراقي طال عليهِ !

— لعلّهُ فارق الحياة ؟ .

— لا ، فمنذ شهرين صادفهُ أحد أهل القرى المجاورة ، ورأى من هيئتهِ أنهُ في عُسر .

— لا بدَّ من ان يكون متألماً لانقطاع أخبارك عنهُ ؛ فيحسن بك أن تغفر لهُ .

— لديَّ أمر واحد لا يسعني أن أغضَّ الطرف عنهُ : وهو أنهُ أساء استعمال أجمل أيامهِ .

— لو مثل بين يديك ، وهو محتاجٌ ، نادم ، وسألك الصفح ، فهل كنتَ تردّ سؤلهُ ؟

— أصبحت ، منذ غادرني ، أعدّهُ بمثابة رجل غريب . وقد صار لي موضوع خجل وعار !

— هو اللهُ رحيم ، غفور .

— نعم ، ولكنّهُ عاقل ومعاقب .

فتصدّع قلب سليم حسرةً ، ورأى انّ أباهُ ، مع ما صار اليهِ من السنّ ، لا يبرح مصرًّا على سخطهِ ، وغير متأهب للرحمة . ففكّر في أن يظهر نفسهُ لابيهِ ، ويخرّ على رجليهِ تائباً ويقول لهُ : « أبتاه ! أنا هو ولدك سليم ! » فلعلّ قلب أبيهِ لا يتصلّبَ أمام هذهِ المفاجأة غير المنتظرة ، ويجود بالغفران .

ثمّ ألقى نظرة الى ذاتهِ ، ورأى الحالة التي هو فيها : وجهاً مصفرًّا ، وثياباً قذرة ، وكل ما فيهِ قد شاخ قبل الآوان ، بسبب السنين الثماني التي قضاها في شقاء وخيبة . وذكر ما كان عليهِ قبلًا من الصحّة والنضارة والنظافة ، وشاهد كيف أمسى منظرهُ الآن أشبهَ بمنظر المشعوذين الذين يأتون من فلسطين للتسوّل . فأبت عليهِ عزّة نفسهِ أن يكشف أمرهُ لابيهِ ، وهو في تلك الحال . ولم يشأ أن يطّلع أبوهُ على ما صار اليهِ من البؤس ، وخشي أن يسمع من فيهِ عبارات الهزء والتوبيخ . ولم يرض ايضاً بأن يُطيل المكوث الى جانب أبٍ يرفضهُ من غير أن يعرفهُ .

وكانا قد وصلا الى « الناقورة » ، وهي غير بعيدةٍ من مصيف المرسلين اللبنانيين . وظهر لعينَي سليم ذلك البيت الذي وُلد فيهِ ، وقد أحاطت بهِ أشجار التفّاح ، وبسقت أمامهُ شجرة جوز كبيرة . وبدا لهُ ذلك المنظر كمنظر فردوسٍ أرضيّ ، وقد حُكم عليهِ هو بأن لا يدخلهُ . فلم يقوَ على

إطالة النظر، فعجّل في السير ليسبق رفيقهُ، وقال: «أصبحتَ على خير، يا صاح!...»

وواصل سليم السير مكسور الخاطر مسحوق القلب، كرجلٍ قد سقط في هوّةٍ عميقة. وهكذا انتهت مقابلتهُ لابيهِ، ولم يعد لهُ إلّا ان يجرّ حياتهُ الشقيّة، الى ان يُفاجئهُ الحِمام في احدى الزوايا، فيموت ميتة الكلب الأجرب.

ورأى ان أجلهُ لا يطول؛ لكنّهُ كان يودّ، قبل فراق الحياة، أن يتعرّف ولو شيئاً من اخبار أمهِ، ويرى، هل هي بعدُ في الحياة. امّا اذا كان قلقهُ من جهة امّهِ لم يكن عبثاً، فحينئذٍ يمكنهُ ان يلاقي الموت غير آسف، حيث يكون قد فقد كلّ ما كان يحبّب اليهِ الحياة.

الفصل الثاني

الام

مشى سليم جهة الأكمة المطلّة على القرية، حيث شجر الصنوبر الكثيف ومن هناك امتدّ بصرهُ الى ذلك النور المتّقد أمام القربان، الرامز الى الايمان الذي لا ينطفئ؛ وذكر كيف انهُ كان يعتني بذلك المصباح الزيتي عنايةً خاصّة، كي لا يخبو نورهُ أصلًا؛ وكيف كان يُسرع الى خدمة القداس، ويلذّ لهُ حمل المبخرة وترنيحها، أيام كان صغيرًا. آه! كم من مرّةٍ أنس في ذلك المعبد المقدّس بصوت داخلي يقول لهُ: «لا تهجر أرض آبائك! إحرص على حراثة الارض التي سقوها بعرق جباههم وعاشوا فيها براحة قلب وطمأنينة فكر!»

ولم تكن هذهِ التذكارات الّا لتزيد في همومهِ وأحزانهِ. ولم يجد عند دخولهِ القرية معزّياً ولا مسلّياً؛ وهو الآن لا يعلم أين يبيت ليلتهُ ولا الى أيّ جهةٍ يتّجهُ، عند صباح الغد. فودّ لو فاجأهُ الموت في تلك الساعة، فينجو ممّا هو فيهِ. لكنّ للطبيعة صوتاً يعلو جميع أصوات الاعتبارات البشريّة: فرغم حزنهِ وتعبهِ، سمع في باطنهِ صوتاً أخبرهُ بأنهُ جائع، وأن عليهِ أن يأكل قبل التفكّر في الغد.

فانحدر من الاكمة الى دكّان الياس جرجس ليشتري رغيفاً. وكان الظلام قد خيّم. ففيما هو سائر، وهو لا يكاد يرى طريقهُ، لاشتغال قلبهِ، أوشك

ان يصطدم بامرأة مارّة من هناك ؛ فتوقّف كلاهما ، وفتح سليم فاهُ وقال لها :

— عفواً ، يا خالتي !

فصاحت المرأة : « سليم ! »

فحدّق اليها سليم ، فعرفها فصاح : « أُمي ! »

وفتحت لهُ ذراعيها ، فأسرع الى معانقتها ، وهو لا يكاد يُدرك السعادة التي فاجأتهُ .

وهتفت الام ، وبكاء الفرح يخنق صوتها :

— سليم ! . . . ولدي ! . . .

ولم يقوَ سليم على الكلام فهتف متلجلجاً :

— أمّي الحبيبة !

صادف سليم أباهُ وحادثهُ ولم يُعرف ؛ أمّا الامُّ ، فهي أرقّ شعوراً وأحنُّ عاطفةً ، فعرفت ولدها من كلمةٍ واحدة خرجت من فمِهِ ، ولم يخفَ عليها ، رغم تحولهِ وأطمارهِ ؛ ورأت فيهِ للحال ذلك الابن الذي طالما ترقّبتْ رجوعهُ لتضمّهُ الى صدرها ، ويضمّها الى صدرهِ .

وبعد ان أكلتهُ تقبيلاً وبوساً ، أخذتهُ بيدهِ وقالت :

— تعالَ ، يا حبيبي سليم ، تعال !

— الى أين ، يا أمّاه ؟

— الى البيت .

عاد سليم الى عاطفتهِ الحقيقيّة ، فقال :

— لا ، يا أمّاه !

— لماذا ، يا عزيزي ؟

— لان أبي يطردني .

— من أخبرك انهُ يطردك ؟

— بلى ، يا أمّي ، فقد رأيتهُ وكلّمتهُ .

— هل عرفك ؟

— لا ، لم يعرفني ؛ ولكن أنا متحقق انهُ لا يقبلني في بيتهِ .

ونظرت الامّ الى ما حولها ، ورأت ان الطريق خالية ، فجذبت ولدها الى بستان هناك ، ووقفت تحدّثهُ في كنف الظلام ، وقالت :

— قصّ عليَّ ما جرى ، وعجّل ، فانا راجعة من الدكّان ، ولا بدَّ لي من العود حالاً الى البيت لأُعدَّ العشاء .

فأوجز لها سليم ما حدث لهُ ، وقال :

— انت تعرفين أبي حقّ المعرفة ؛ فهل تظنّين انهُ يرحّب بي ، اذا وصلتُ الى البيت معكِ ؟

فقالت الام بلهجة اليأس :

— لا !

فقال سليم :

— أنا عالم بذلك ؛ فالاجدر بي أن أُواصل سُراي .

فقبضت الام على ذراعهِ وهتفت :

— لا ، يا سليم ! فاني لا أُريد أن أخسرك مرّةً ثانية .

— ولكن ما العمل ، وليس في اليد حيلة ؟

— اللهُ يدبّر الامور ، ولا يهملنا . . . قلّ لي ، يا عزيزي ، هل توفّقت في سفرك ؟

— آه ! يا أمّاه !

— قد رأيت من ثيابك أنك في حالة غير راضية ، ووجهك يدلُّ على أنك كنت مريضاً .

— نعم ، ولم يمض على شفائي غير ايام.

— أيّ مرضٍ أصابك ، يا عزيزي ؟

— أُصبت بذات الجنب.

— لعلّك لم تشفَ تماماً ؟

— بلى قد شفيت ؛ لكني لا أزال ضعيف القوى ؛ وأنا في عوز الى الراحة والعناية ؛ وهيهات أن أحصل عليهما ، فلم يبق لي من الحياة الّا قليل.

فاغرورقت عينا الام ، وهتفت :

— لا تقل هكذا ! لا أُريد ان تموت ! سلامتك ، يا عزيزي سليم ! سأعتني بك ، رغم ارادة أبيك. إسمع : تعال اليّ غداً. سأكون في البيت وحدي ، من الساعة العاشرة الى الساعة الرابعة بعد الظهر. أبوك واختك الصغيرة « وديعة » يمضيان الى « وطا الجوز » لزيارة اختك سليمة ؛ فقد تزوجت بيعقوب خليل.

— عرفت ان سليمة قد تزوجت.

— نعم ، ولها ولدان لطيفان : صبيّ وابنة. والابنة صار عمرها ثمانية أشهر ؛ وقد علمنا أن قد نبتت أسنانها. فأبوك ووديعة يذهبان غداً لزيارة صهرك ، وأنا أبقى في البيت. تعال إذن ، وأنا أنتظرك لطعام الصباح ؛ وهناك نتحدّث على مهل.

— نعم سأُجيئك في الوقت الذي عيّنتهِ.

— أين تقضي هذهِ الليلة ؟

— هنا ، في فندق الياس جرجس.

— ألم تتعشّ بعد ؟

— لا. ولمّا صادفتكِ ، كنتُ قاصداً الى الدكّان لاشتري عشائي.

— إمضِ حالاً الى الفندق وتعشّ. إعتنِ بصحتك ، وكلْ جيّداً. انت في

حاجة الى دراهم ، فها أنا أُعطيك .

— معي ثلاث ليرات سوريّة .

— هي الآن كافيـة . لا بدّ الآن من مفارقتك . سأُصلّي من أجلك طول هذا الليل ؛ وصلِّ انت ايضاً ، يا عزيزي .

— نعم ، يا أُمّي .

— خطَر لي خاطر . . . هل معك ثياب للتغيير ؟ ثيابك هذهِ وسخة .

— معي في هذهِ الرزمة بدلة كاملة ، وهي تقريباً جديدة .

— طيّب . غـداً أغسل ثيابك ؛ ولكن يجب ان يكون ذلك صباحاً ، كي يتسع الوقت وتنشف . ابوك ووديعة يتركان البيت عند الساعة العاشرة ؛ وانا سأجتهد في أن يخرجا قبل تلك الساعة . وسيمرّان أمام فندق الياس جرجس ، فـاذا رأيتهما وقد جازا الفندق ، أسرعتَ إليّ بثيابك ، فاستطيع أن أغسلها قبل المضيّ لحضور القداس . فهمت ؟

— نعم ، يا أُمّي .

— إذن الى الغد ، يا ولدي العزيز ، الى الغد .

وطوّقت الام بذراعها عنق ولدها وقبّلتهُ مراراً ، وانطلقت .

وتوجّه سليم الى الفندق ، وهو منعَش بتلك القُبَـل الحارّة ، وقلبهُ يشكر الله على تلك النعمـة التي جاد بها عليه . وتعشّى في الفندق لحماً مشوياً وعجّة وسلاطة ، وتفـكّهَ بتفاح ميروبا المحفوظ من الموسم الماضي ، وأكل كلّ ذلك باعظم لذّة .

وكان تعِباً مـن السفر ، فجثا في الغرفة وصلّى ، ثمّ استلقى على السرير ونام .

ولمـّا أصبح ، أسرع وحلق ، وغسل وجهه ويديهِ ، ونظر في المرآة فرأى انّ هيئتهُ صـارت حسنة . وطلب ، فأتوهُ بجبن وبيض وخبز ، فأكل هنيئاً . ثمّ

لبس ثوبهُ النظيف ، وجلس الى النـافذة المطلّة على الطريق ، يترصّد مرور ابيهِ .

وما هو غير حين ، حتى سمع وطء أقدام ، فرجع الى الوراء قليلًا ، ونظر مـن خلال النافذة فرأى قامة ابيهِ الضّليعة ، وقدَّ شقيقتهِ وديعة ، فأسرع الى الثياب التي نزعها عنه ، وتأبّطها وخرج الى البيت طائرًا .

وكانت امّهُ أمام الباب تنتظر ، فركضت وعانقتهُ قائلة :

— هل أكلت ، يا عزيزي ؟

— نعم ، يا امي ، أكلت .

وعمدت الامّ الى الثياب فغسلتها ، وحملتها الى مـا وراء البيت لتنشرها في الشمس . فتبعها سليم ، فرأى هنالك نتائج اتعاب ابيهِ : الأرض محروثة بمنتهى العناية ، ولا أثر للعشب فيها ؛ وشجر التفاح وقد بدأ يورق ؛ والبطاطا وقـد اظهرت ضاوعها ؛ والبندورة وقد وثبت سوقها تتسلّق على الاوتاد ؛ والملفوف وقد اخذت اوراقه تلتفّ ؛ وهنا وهناك ودائق (مساكب) محروثة فُرش فيها الزبل ، وهي تنتظر أن تُبذر فيها ، من جديد ، بذور الفجل والخسّ والبقدونس وسائر أحرار البقول ؛ وفي آخر البستان خلايا يخرج منها النحل ويدخل حاملًا ما جنى ؛ وعلى جميع البستان بسطت شمس الصباح أشعتها فأبهجت كلّ ما فيهِ ، وألقت السعـادة في قلب كلّ مستيقظ . وبينا الامُّ تنشر الثياب ، تنهّد سليم وقال :

آه ! كيف استطعتُ الابتعاد عن هذهِ المشاهد الساحرة !

— فقالت لهُ امّهُ :

— ستعود اليها ، ان شاء الله : فقد بدا لي خاطر ، جيّد .

— ما هو ؟

— ذلك يطول شرحهُ ، فسأقولهُ لك وقت الطعام .

ورجعا الى البيت. وما كادت الامّ تنتهي من لبس ثيابها، حتى دقّ جرس القداس الدقة الاولى.

ونظر اليها سليم فهتف:

— أتعلمين، يا أمي، انك لا تزالين صبيّة!

— صبيّة، يا عزيزي، ولي ولد عمرهُ ثلاث وثلاثون سنة؟ وان السنين الثماني التي مرّت قد حُسبت عليّ مضاعفة.

— آه! كم سببتُ لكِ من الاحزان!

— دعْ ما مضى. قد رجعت الآن، فاذا استطعتُ إبقاءك هنا، عددتُ نفسي سعيدة.

— قيل لي، فيما مضى، انني أُشبهكِ كلّ الشبه.

— نعم، واخلاقك ايضاً كانت اشدّ شبهاً بأخلاقي. كنتُ في صبائي كثيرة الافكار والهواجس، رقيقة القلب والعواطف، محبّة للجمال؛ وذلك غير محرَّم؛ ولكن، على الانسان أن يحذر الانقياد للأوهام. ولعلّك، يا ولدي، ذهبتَ ضحيّة هواجسك.

— اجل، لعلّ ذلك أصلُ شقائي.

— انّ المحبّين للعمل، الغير المستسلمين للأوهام، ربّما كانوا أقلّ لطفاً؛ لكنهم يقومون ابداً بأعمالهم خير قيام.

— نعم، وإن ابي من هؤلاء.

— ابوك، هو، قبل كل شيء، رجلٌ شريف، يفضّل أن يخسر حتى آخر غرش من مالهِ، على أن يقترف اقلّ شيء فيهِ مسٌّ للشرف. نعم انهُ قد نجح وأفلح؛ لكنَّ حسن الحظّ كان لهُ ابداً باسماً... سليم، نسيت أن أُخبرك أننا اشترينا هذا البستان وصار مُلكنا.

— اشتريتموه؟

— نعم، واشترينا هذا البيت معهُ. وقد تلطّف البائع وحطّ لنا من الثمن. وكان ينقصنا شيء من المال لنؤدّي جميع المبلغ، فعرضتُ على ابيك، فباع الحصّة التي لي من ابي في حراجل، وأضفنا قيمتها إلى ما كان معنا؛ والآن باقٍ لدينا خمسة آلاف غرش.

وقرع الجرس مرّة ثانية، ثم ثالثة إيذاناً بانّ القداس كاد يبتدئ. فتناولت الامُّ سُبحتها وقالت لسليم:

— علينا ألّا نذهب الى الكنيسة مترافقين، فقد يعرفك اهل القرية، أو يتساءلون عنك، اذا رأوك معي، فتمتد الالسنة وتخبر أباك. وأنا لا أُريد أن تُكشف الحيلة التي عمدتُ الى احتيالها. فاذهب الآن وحدك. وبعد القداس تعود.

فعانق سليم امّهُ وقبّل يدها وخرج.

وجلس في احدى زوايا الكنيسة كي لا يفطن لهُ أحد. لكنّ القرويين بحاثون كثيرو الفضول. فتوجّهت الانظار الى هذا الشابّ المجهول. اما هو، فلم يعبأ بنظراتهم ولم يرفع عينيهِ، بل كان يُسارق النظر الى أُمّه، وقد جثت تصلّي بكلّ حرارة. وكانت صلاتها — ولا ريب — من أجل نجاح مسعاها. وهو ايضاً تضرّع الى الله ليُلين قلب ابيهِ إشفاقاً عليهِ وحبًّا لتلك الأُم التي تموت حزناً، ان خسرت ولدها ثانية.

بعد القداس خرج سليم من الكنيسة خفيةً، ورجع الى البستان. وكانت امُّهُ قد وصلت الى البيت منذ حين، فقالت له:

— لا بدّ من ان تكون قد جعت.

— جعت قليلًا.

فأسرعت الى قنّ الدجاج وعادت بستّ بيضات، وقلتها بالسمن، وأصلحت لهُ صحن «سلاطة» وقالت:

— هيّا كُلْ .

فجلس سليم يأكل . وكان، حيناً بعد حين، يُلقي النظر على جميع ما في البيت، ويذكر الايام السالفة التي قضاها فيهِ محاطاً بعناية امّهِ وسهر ابيه، ذلك الاب الذي كان يعلّل النفس بمستقبل ابنهِ ويعلّق بهِ آمالاً، كانت لسوء الحظ خائبة .

ورأى سليم انْ لم يتغيّر في البيت شيء ؛ فكأنهُ غادر المنزل البارحة . وأعادت اليهِ الذكرى جميع حوادث طفولته العذبة، فراح يراجعها في ذهنهِ واحدة، واحدة .

وكانت الامّ قد أسرعت الى الجرن وأخذت تدق لعزيزها سليم «كبّة» . ثم قدّمت له ثلاثة اقراص نيئة وقالت :

— كلْ، يا حبيبي، كلْ

فاغرورقت عينا سليم، وقال :

— لا استطيع .

فحزنت الام وقالت :

— لماذا ؟

— لانْ الحزن يضغط قلبي .

— وأنا ايضاً، مدّة ثماني سنين ضغطَ الحزن قلبي، وكم انهلّت دموعي على خبزي . ولكن ماذا ينتفع الانسان اذا امتنع عن الطعام . أنا الآن، يا عزيزي، أدفع عن قلبي كلّ همّ، فلا يكون في فؤادي الّا الفرح لوجودك أمامي . ربّما كان الغد يوماً أسود ؛ امّا هذا اليوم، فهو ابيض وجميل وبهيّ . إعمل مثلي ولا تفكّر في شيء .

وقرّصت الام عدّة اقراص كبّة، وصبّت السمن في المقلاة، واخذت تقليها . فكانت رائحة السمن تنعش الأُنوف والقلوب . ثم قدمت لولدها قرصاً مقليّاً،

فأكلهُ بلذّة عظيمة حتى كاد ينسى جميع همومهِ .

وقالت الأُم :

— بكيتك ، يا ولدي ، مرارًا ، كأنّك انتقلت من هذهِ الحياة . وإن خبر الثورة في جنوبِ لبنان ملأَ قلبي هلعاً . وكم من ليلةٍ أحييتُها ساهرة . وكنت قد علّقتُ صورة سيّدة لبنان فوق فراشي . فاذا أصابني السهاد ، جثوتُ ابتهل اليها بدموع ، وجعلتُ يدي على قلبها ، أسألها ان تردّ عليَّ ولدي !

وتأثّرت الام من هذهِ التذكارات ، فطفرت الدموع من عينيها .

فتوقّف سليم عن الأَكل وشارك أمّهُ في البكاء .

ثم واصلت الامّ كلامها ، قالت :

ذات يوم وصلتْ اليَّ أخبارٌ عنك ، فهدأَ اضطرابي قليلًا ؛ ولكني لم أَتعزَّ .

قال سليم :

— وماذا كان يقول أبي ؟

— ما كان يقول شيئاً ؛ لكنّهُ كان يتألّم في باطنهِ .

— لعلّ قلبهُ رقّ بسبب غيابي ؟

— بل زادَ سخطاً .

— عرفتُ آباء لعنوا بنيهم ؛ لكثهم في ويلات الحرب غفروا لهم . وكم من أَزواج مضى على افتراق بعضهم عن بعض زمان طويل ، فاصطلحوا ؛ وأَبي ، على ما هو عليهِ من التقوى ، يستمرُّ حاقدًا على ابنهِ ولا ينسى الاساءة ؟

— سينسى كل ذلك رويدًا ، رويدًا . هو يُريد أَن يحافظ على كلامهِ : فقد حلف انه لا يدعك تطأ هذا المكان ؛ فلا يشاء ان يعود عن كلامهِ . فضلًا عن أَنهُ لم يرَ منك ما يلطّف سخطهُ عليك . إن كثيرين من شبّان هذه

النواحي هجروها بعد الحرب الكبرى ورحلوا ؛ وكثيرون غيرهم يفكرون في المهاجرة أو في الانتقال الى بيروت. فكان ابوك ، كلّما رأى شاباً يتأهب للسفر ، يتأثر ويقول : « ويلُ الجبل ! هوذا ايضاً مهاجر جديد ! » ويستمرُّ عابساً عدّة ايام.

قال سليم :

— إذن عليهِ أن يبشّ لمن يرجعون.

اجابت الام :

— هيهات ان يرجع منهم أحد !

— وأنا ! أما رجعت ؟

— نعم ، ولكن ينبغي ان نسعى بحكمةٍ لنيل رضاه ؛ وإنّي أسأل الله ان لا يطول ذلك. واذا أطعتني في الحيلة التي فكّرت في احتيالها ، نجحنا بعون اللهِ.

— انا لكِ ، يا أمّاه !

— أبوك كثير الحذر ؛ ومهنتنا ظهرتْ لك فيما سبق صعبةً شاقّة ، وهي الآن كذلك ولن تتغيّر. واذا كنت قد كرهتها في الماضي ، فليس لك الآن سبب جديد يحبّبها إليك ؛ فيظنّ أبوك ان الضرورة أحوجتك الى الرجوع ، فيخشى ان تكون فلّاحاً مكسالاً. قلْ لي ، يا ولدي ، أتشعر انك جدير بالحراثة ، لا كما سلف لك فقط ، بل ان تدير العمل أيضاً ، وتبيع وتشتري الحيوانات ، وتقوم مقام أبيك في إدارة البستان ؟

— نعم ، يا أمي ، نعم. واذكري اني ، فيما مضى ، لم أكن غبيًّا.

— اذكر انك كنت موضوع فخر لأبيك.

— سلّمي المحراث الى يدي وسائر آلات الحراثة ، فترَي منّي أمهر فلّاح !

— حسن ! أصغِ الآن الى ما أقولهُ لك : عليك ان تحاول الدخول عند أبيك أجيراً ، واتخذ لك اسماً آخر .

فحنى سليم رأسهُ وقال :

— قد خطر لي هذا الفكر ، يا أمي ؛ وقد قلت في ذلك كلمةً لأبي ، فرفض . فكيف تشائين ان يرضى بي اليوم ؟

— أنا أساعدك . أمسِ كنت مهزولاً ، مصفرًّا ، وعليك ثياب قذرة ؛ أمَّا اليوم ، فهيئتك حسنة ، وثيابك نظيفة .

— علمتُ من أبي انه قاصدٌ ان يستخدم أحد الشبَّان .

— كان ذلك منهُ حجَّة ليردّ طلبك . ولو كان ذلك صحيحاً ، لكان أخبرني . فهو في هذهِ الايام يفتّش عن أجير ؛ وجميع الأُجراء قد تقيّدوا في الخدمة .

— اذن لم يجد أبي أجيراً ؟

— عندنا ولد عمرهُ خمس عشر سنة ؛ وهو نشيط ، يحبّ العمل ؛ ولكن أيكفينا ولد ، ونحن في حاجة الى ثلاثة أُجراء ؟ نريد ، في القليل ، شاباً ماهراً في الحراثة ، يسعهُ عند الحاجة ، ان ينوب عن أبيك . آه ! لو لم يترهّب أخوك بولس ، لكان الآن أفضل مساعدٍ لنا ؛ ولكن ، ما العمل ؟ قد اختارهُ الله لخدمتهِ ؛ ونحن لم نزد ان نبخل بهِ على الله . ولو لم يكن أبوك ذا عافيةٍ جبَّارة ، ما استطاع ان ينهض وحده بمقتضيات هذا البستان الطويل العريض . وفي هذهِ السنة قد بلغ الثالثة والستين من عمره ؛ فالراحة لا تضرّهُ . ان البستان يحتاج الى اربعة رجال ؛ لكن الاجراء قد أسأمونا ، فاضطررنا ألّا نستخدم إلّا من نحن في أقصى الحاجة اليهِ .

— يظهر أن قد حدث خلاف بينكم وبين الاجير الاخير ؟

— نعم ، وها انا أقصُّ عليك ذلك باختصار : من اربع سنين ، كان

عندنا أجير من « وطا الجوز » ، وكان نشيطاً وذا قلبٍ طيّب ؛ فمرضت امرأتهُ ، فالتزم ان يعود الى قريتهِ ويعتني بها . فاستخدمنا طنّوس العينطوري . وكان أبوك عارفاً ان طنّوس هذا يابس الراي عنيد ؛ ولكن لم نجد غيرهُ ، لان جميع الأُجراء كانوا قد استُخدموا .

— اذكر ان طانيوس كان ، قبل سفري ، اجيراً عندنا ، وكان بعدُ صغيراً نشيطاً .

— نعم ، ولكن تغيّرت أخلاقهُ بالمعاشرة السيئة . وقد استقى من أحد المصطافين أفكاراً جديدة غريبة : منها ان المُلاكين هم سُرّاق وخطفة ، وأن لا حقّ لهم بان ينفردوا باستغلال أراضيهم ، لان الارض مشاع للجميع ، وأن على الفقراء ان ينهضوا في وجهِ كلّ مُلّاك ويشاركوهُ في حاصلات ملكهِ .

— هذي أفكار بلشفية !

— نعم ، واذكر أني سمعت هذهِ الكلمة ، ولكن لم أفهم معناها . وفي ذات يوم كان طانيوس في احدى اشجار الجوز ، فسقط الى الارض وكُسرت ساقهُ .

— ياليتهُ مات !

— وقد شفي الآن ، وهو يريد أن يسبّب لأبيك مشاكل ومشاغل .

— ماذا يطلب ؟

— يطلب تعويضاً عن كسر ساقهِ وتعطيل شغله ؛ لكنّ الطبيب الشهير ، الشيخ لويس الخازن ، كان في ذلك اليوم عندنا ، وقد رأى طانيوس حين وقوعهِ ، وشهد انّ ذلك حصل بسبب طيشهِ ، وشهادة الشيخ لويس لا تُرَدّ .

— اذن لا داعي الى القلق . ولكن متى أرى والدي ؟

— متى رجع من حراجل ، تمثّل أمامهُ وتطلب منهُ أن يستخدمك .

— لعلّي لا أخفى عليه ، فاذا عرفني ، خاب كل أمل .

— لا ، لا تخف . انَّ السنين الثماني قد غيّرتك كل التغيير .

— ولكن أنتِ عرفتني ، حتى في الظلام !

— آه ! يا بني ! انت لا تعرف قلب الأم ! نعم ، قد يكون ابوك أوفر حباً لك ، لكنّ حبّ الأم هو حبّ آخر . أجل ، لكنّ عندي شيئاً يقلق بالي . اذا طلب ابوك ان يطلع على « تذكرة النفوس » ، التزمت أن تكشف لهُ حقيقة الواقع ، فيضيع كلّ رجاء .

— هو الله قد استدرك كلّ شيء : معي تذكرة باسم رفيق صادفتهُ في بيروت ، وكان يُدعى حبيب الأسياوي ، وقد توفّاهُ اللهُ في المستشفى . وقبل وفاته ، ترك لي التذكرة مع عدّة تذكاراتٍ عيليّة . فهذه التذكرة تساعدني على الدخول في خدمة ابي . فاذا قبلني ، فلا تناديني الاّ باسم « حبيب » .

— نعم . وسابذل جهدي كي لا أغلط .

— ولكن اذا نجحت ، ودخلتُ في خدمة ابي ، فما تكون النتيجة ، يا تُرى ؟

— تكون النتيجة حسنة ، اذ يتسع أمامك الوقتُ والمجال ، فتُري أباك أنك قد اهتديت ورجعت عن ضلالك . أنا عارفة أنّ أباك لا يزال يحبّك ، وانهُ متألم لغيابك ؛ لكنهُ لا يريد أن يُظهر ذلك . فيجب ، من الآن فصاعداً ، ان تجتهد حتى يتأصّل حبّك في قلبهِ ، من غير ان يدري أنك ولدهُ . . . وحينئذٍ يمكنك أن تعرّفهُ من أنت ؛ وأنا واثقةٌ بانهُ يقبلك اذ ذاك ، ولا يطردك .

فتنهد سليم وقال :

— عسى أن ينجح المسعى !

— تقوّ ، يا عزيزي ، ولا تيأس ! فإن يئست ، ضاع كل أمل .

— دعيني ، يا امي ، أتعرّف الى أبي ؛ ولي الأمل بان أقنعهُ فيغفر لي ويقبلني في بيته .

فهتفت الامّ بصوتٍ ملؤهُ الثقة :

— قلت لك انك ستقنعهُ فيما بعد ! أنت الآن ناهض من المرض ؛ وانك في عوز الى راحةٍ وعناية . امّا العناية ، فأُحيطك بها ؛ وامّا الراحة ؟ . . .

— لا تضطربي ، يا امي الحبيبة ، أنا بالاخصّ في حاجةٍ الى طعام جيّد ، وحياةٍ منظَّمة . وها انا اليوم ، بعد الليلة التي بتُّها في فندق الياس جرجس ، والعشاء الذي اعدّتهُ لي امراتهُ « هيفا » ، أراني قد تغيرتُ وتشدّدت . فلا يمرّ بي اسبوعان ، حتى أُصبح وليس للهزال عليَّ أثر . لقد عبرت بي ايّام طويلة ، وانا فيها أنام وآكل على متمكّنٍ غير أمكن .

— أطلعني على ما حدث لك ، منذ فارقتنا .

وكانت الام قد سكبت القهوة . فكان سليم يشربها ويقصّ على أُمّهِ أخبار وقائعهِ . وكانت الامّ تسمع ، ودموعها تتساقط . كان يمكنها ان تقول لابنها إنّ ما قاساهُ كان عقاباً عادلاً عن طيشه ، لكنها لم تفكرّ في شيء من هذا ، فان البلايا اشتدّ نزولها على ولدها فعاد لا يستحق الآن إلّا الرحمة .

ولما انتهى سليم من أخباره ، قال لأمّهِ :

— اخبريني الآن ، يا امي ، عن أحوال جميع العيلة .

— ليس عندي من الأمور المهمّة ما أُطلعك عليه . عرفتَ ان سليمة قد تزوّجت ، وأنّ اخاك بولس قد ترهّب ، وهو الآن في دير قزحيا .

— ووديعة ؟ قد لمحتها هذا الصباح ، وقد ظهرتْ لي جميلة .

— نعم ، « وديعة » جميلة لطيفة ، محبّة للعمل . هي الآن بهجة البيت ، وموضوع فرح قلوبنا .

— و . . . « وردة » ؟

— وردة ، ما تزوّجت بعد .

فرفع سليم راسهُ وهتف :

— صحيح ؟

— نعم لم تتزوّج بعد. وقد طلبهـا أحسن الشبان، ولم ترض. وانا أُسرُّ اليك ان لا بدّ من ان تكون قد حزنتْ لابتعادك.

فاغتمّ سليم وقال:

— ما كنتُ أهلًا لأن يُحزَن لبعادي. آه! ما عرفتُ قدرهـا. لا، لستُ جديرًا بنيل الصفح!

— نعم أنت اهل للصفح، اذا كنت حافظتَ على شرفك.

— أمّاه! إنّ حبّي لك كان أكبر معين على حفظ شرفي.

— ولدي الحبيب! كلامك هذا ينسيني جميع أحزاني؛ لكنّ الوقت قد ضاق، فيجب ان نفترق حالاً. الأجيرُ الصغير مضى ليزور أهلهُ، وهو لا يلبث ان يعود، فلا أُريد ان يراك هنا.

— سأعود متى رجع ابي.

— اذن الى المساء، يا ولدي. وليكن الله معك!

وتعانقا، وانصرف سليم.

الفصل الثالث

المعلم يوسف

يوسف ابو خليل ، هو المثال الأعلى لجميع الفلّاحين الذين يتعشّقون الارض ويسقونها بأعراقهم . وهو طويل القامة ، قويّ البنية كاشجار السنديان التي تظلّل باغصانها الجبّارة ساحة كنيسة قريته . لم يمرض قط في حياته . وهو قاسٍ على نفسه ليّن على الغير ، شديد التعلّق بسنن وعادات اجدادهِ الذين اشتهروا بالاستقامة وشرف النفس . وهاتان هما الصفتان اللتان جعلتا الشعب اللبناني باسلًا قويًا ! لكنهُ كان كثير الميل الى البحث والعناية بتحسين الارض في اتّباع الاساليب الحديثة . لذلك ترى أرضهُ خصبة كثيرة الغلّات ، وحيواناته ، من البغل الى البقرة الى الدجاج ، من أفرهِ الحيوانات واجملها منظرًا . لذلك لُقّب بالمعلم يوسف ، واصبح اسمهُ مشتهرًا في صرود كسروان ، كاشتهار « عوّاد عوّاد » (١ في بحرصاف ، احدى قرى القاطع ؛ وصار رأيهُ في الامور الزراعية فوق كلّ رأي . ولو نظرتِ الحكومة اللبنانية الى مهارة هذين الرجلين وعنايتهما بحراثة أرض الاجداد ، لزيّنتْ صدورهما بوسام الزراعة ؛ فهما بهِ جديران كلّ الجدارة .

---

١) هو والد صديقنا الكاتب المشهور الخوري منصور عوّاد ، الملقّب بالبحرصافي ، والذي اشتهرتْ مقالاتهُ ومؤلفاتهُ .

وطالما سعى أهل ميروبا ليقيموا المعلم يوسف شيخاً عليهم ، فـأبى خشية أَن تلهيهُ واجبات المشيخة عن العناية بالارض ، محبوبته

ولم يكن يوسف ، في سابق حياتهِ ، من أهل اليسر ؛ بل قضى ايام صبائهِ في تعبٍ وشقاء . وما وصل الى العاشرة من عمره ، حتى فقد أباهُ . ولم تكن امّهُ ذات ثروت ، فربّتهُ بقدر ما مكّنتها الاحوال . وكثيراً ما كان يكتفي في الصيف بالخبز والبندورة طعـاماً ، وفي الشتاء بشيء من الزيتون والخبز . ولكن ، متى كانت الشهوة للطعام (القابليّة) جيّدةً ، فلا يحتاج الانسان معها الى المآكل الفاخرة . وكانت امّ يوسف تقيّة صالحة ، تشتغل ليل نهار ، وتخدم بيت أحد المشايخ من آل الخازن ، في غسل الثياب . ولمّا بلغ يوسف ابنها الثانية عشرة من عمره ، قعدعند احد المشايخ ، يرعى الماعز . ثم استخدم اجيراً في احد البساتين ؛ وبعد ذلك صار مساقياً (شريكاً) . ومهر في حراثة الارض . وما بلغ الثلاثين من عمره ، حتى صار معهُ عشرين الف غرش . فتزوّج بيوسفية ، وهي وحيدة لأبويها ، كاملة الصفات ، محبّة للترتيب والتوفير . ولمّا عُرض البستان الذي كانا فيهِ للبيع ، اشترياهُ . وهكذا انتقل يوسف من رعـاية المـاعز الى المساقاة الى التملك . ولمهارتهِ لُقّب بالمعلم يوسف .

وكان يوسف ، مع ما وصل اليهِ من النجاح ، لا يزال عابساً : فإنَّ سفر ولدهِ البكر سبّب لهُ حزناً دائماً . ولم يكن يجد تعزية الّا في حنـان امراته يوسفيّة ، وطاعةِ سائر بنيهِ ، ولا سيَّما في حبهِ الارض . فكان في غمار أحزانهِ يُرسل النظر الى حقوله ، وقد انحنت فيها رؤوس السنابل ملآنةً ، والى بقره ، ترعى في المروج ، والى ثمار التفّاح النضير ، وقد شربت من ندى الصبـاح ، فيتعزّى بعض التعزية ويلهو عمّا هو فيهِ من الحزن .

امّا تديُّنهُ ، فكان راسخاً كصخرٍ في بحر . فكان يتلو صلاة الصبح كل صباح ، وصلاة النوم كل مساء ؛ ويذهب لسماع القداس ذهاب ابنِ ماضٍ ليرى

أباه. وكان أهل ميروبا وسائر القرى المجاورة يحترمونهُ ويقتدون بهِ . وكان، مع أشغالهِ، ميّالاً الى قراءة الكتب الصالحة المفيدة، ولا سيّما الانجيل المقدّس .

وكثيرًا ما كان يردّد هذا الكلام ويقول :

— آهٍ من الاغنياء الكسالى ! ما أشدّ ما يكون حسابهم في يوم الدين !

تلك هي صفات الأب الذي كانت يوسفية وابنها سليم يفكران في إلانة قلبه . اذن لم يكن الوصول الى هذهِ النتيجة صعباً ؛ ولكن يجب السعي اليها بفطنةٍ ودهاء .

وهذا ما كانت امّ سليم تفكّر فيهِ مشغولة البال، وهي تنثر الحبّ على الدجاج. فكانت هذهِ الطيور وأفراخها تنقد الحبّ وتقيق حول يوسفية سروراً وشكراً.

نعم يجب على الاب ان يغفر لابنهِ، فيرجع هذا الى المنزل الأبوي، فتستطيع هي ان تموت بسلام. كانت كل عواطفها منصرفةً من قبلُ الى تعزية زوجها وإزالة همومهِ ؛ امّا الآن، فقد رجع ابنها، فتصاعدت هموم تلك السنوات الثماني من قلب الام الى شفتيها، فكانت في ذلك الحين تخاطب نفسها باكيةً مفكرة بأن ليس لها فرح منذُ الآن، الّا قرب ابنها .

دنا وقت العصر، وحان حين رجوع زوجها وابنتها . فمسحت يوسفية دموعها خشية ان تُرى باكية . ومضت فأطلّتْ على البقر ترعى في المرج وراء البستان ؛ ثم عادت الى المراح ورتبت فيهِ ما يحتاج الى الترتيب . وما كادت تنتهي من عملها، حتى عاد الغائبان ووصلا الى فناء البيت .

فأسرعت الامّ لاستقبالهما، وهي تحاول أن تظهر لهما أنها مسرورة .

وكان من الصعب على يوسفية أن لا تبشّ، وقد رأت « وديعتها » في ثوبها الجديد، وهيئتها تفيض نضارة ونوراً، كأنها عادت معها بشعاع من أشعّة الشمس ؛ وعيناها السودوان تبسمان في وجهها الغضّ، وضفائر شعرها بدت

اوفر شقرةً تحت «طرحتها» البيضاء؛ وفي يدها كيس صغير مزدان بخيوط مذهّبة، صُنعُ أناملها اللطيفة؛ وقدماها يجريان جري الغزال.

هذهِ الفتاة كانت لأبويها اخت بنيامين عند يعقوب. لذلك كانا يدلّلانها ويحبّانها حبًّا شديدًا. وكان ابوها يُسرّ برؤيتها لابسةً، ايام الآحاد والاعياد، ملابس وضيئة؛ ولا سيّما ان تلك الملابس ما كانت تكلّفهُ نفقات كثيرة، لان وديعة كانت تفصّلها وتخيطها. وبنات ميروبا، وسائر قرى الصرد، صرن بارعات ماهرات، يطرّزن في اوقات الفراغ تطريزًا تودّ فتيات بيروت ان يكون لهنّ في جهازهنّ منهُ.

عانقت وديعة أمّها وقبّلت يديها، ثم أسرعت فوضعت «طرحتها» وكيسها الصغير في الخزانة. ثم جلست العيلة الصغيرة، واخذ يوسف ووديعة يقصّان على الامّ من لطائف اخبار طفلي سليمة ما يدلّ على ذكائها. واخبرت وديعة أمّها انّ ابن شقيقتها البكر يشتدُّ شبههُ بجدّهِ يوسف، يوماً فيوماً. وكان يوسف مسرورًا بهذا الشبهِ، ولو لم يقل شيئاً.

ان المعلم يوسف كان، في شبابه، حسن الشخص، جميل الطلعة. وهو الان، رغم الثلاث والستين من عمره، لا يزال منتصب القامة، نضير الوجه؛ وأسرّة وجههِ تدلُّ على حزم يلطّفهُ ابتسام فمٍ ذي شفتين غير رقيقتين. فعند اوّل نظرة يُحسبُ أنّه صعب المعاشرة؛ ولكن اذا أطلتَ النظر قليلًا، حكمت بانه سهل الخلق، صالحهُ؛ وهو في الحقيقة كذلك. نعم، انه، في حالة غضبهِ السريع، لا يُكلّم، لكنّه لا يلبث ان يرضى ويعفو. وان استعدادهُ لسرعة الغضب يُلحظ ويُحزر من برق عينيه، ومن الطيّات الغائرةِ بين حاجبيهِ، ومن حمرة وجههِ تزيد تألّقاً تحت تاج شعرهِ الأبيض.

وبينا المعلّم يوسف يتحدّث هو وامراتهُ وابنتهُ، سُمع وطء أقدام آتٍ. فاهتزّ قلب يوسفيّة، حتى كاد يثب من صدرها: فقد عرفت ذلك الآتي،

وكانت في انتظاره ؛ لكنّ تأثّرها عند سماعه، كان شديداً جدًّا.

فقال يوسف :

— تُرى، من يكون هذا ؟

وقُرع الباب...

فقال المعلم يوسف :

— أُدخل !

فاذا الداخل سليم نفسهُ ؛ ولكنْ « سليمُ أمّهِ » فقط. ان وديعة كان عمرها، عند سفر اخيها سليم، عشر سنين ؛ فلم تعرفهُ. والأب ايضاً لم يفطن ان ذلك الشاب هو الذي صادفهُ أمس، اذ هو الآن في ثياب نظيفة. وكانت يوسفيّة في مأمن من أن رجوع الابن لا يمرُّ بخاطر الاب.

فألقت الامّ على ولدها نظرة خالية من كل اهتمام. ونظر الاب وابنتهُ الى القادم المجهول، ينتظران منهُ الكلام.

فسلّم سليم وقال :

— أَلستُ الآن في بيت المعلّم يوسف ابي خليل ؟

اجاب الاب :

— نعم، أنا يوسف ابو خليل.

— قال سليم :

— ألا تعرفني ؟

— لا.

— امسِ صادفتُك في الطريق، حين كنتَ راجعاً بالبقرة والعجلين.

— نعم، نعم ؛ تذكّرتك ؛ لكنّك لستَ الآن في الهيئة التي لقيتك فيها أمس. تفضّل، اجلس، وقل ما تريد.

جلس سليم وقال :

— قيل لي ، في فندق الياس جرجس ، انك في حاجةٍ الى أجير . أتريد ان تستخدمني ؟

— قلتُ لك أمس إني عازمٌ على استخدام شخصٍ آخر .

فقالت يوسفيّة :

— من يكون هذا الشخص ؟

اجاب يوسف :

— سأُسمّيه لكِ فيما بعد .

فاتّخذت يوسفية من ارتباك زوجها فرصةً ملائمة ، فقالت له :

— ولمَ لا تسمّيهِ الآن ؟

اجاب يوسف :

— الحقُّ أني لم اجزم بعد باستخدام أحد ؛ لكنّي لا أشاء قبول شابٍّ أجهلهُ ؛ بل اريد ان أكون عارفاً بمن استخدم .

اجابت يوسفية :

انَّ الاجير الاخير سبّب لك متاعب ؛ وكنتَ تعرفهُ قبل ان تستخدمهُ ؛ فلِمَ قبلت بهِ ؟

قبلتُ بهِ لأني ما استطعت الحصول على غيره .

فقال سليم :

— سترى أني أفضلُ من ذاك الاجير . واعلم ، يا معلّمي ، اني كنت مريضاً ؛ ومنذ عهدٍ قريب خرجت من المستشفى ، ولم يبقَ معي سوى مائتين وخمسين غرشاً سورياً . فلا تردَّ طلبي ، إذا شئتَ ان تنشلني ممَّا أنا فيهِ من الضيق . وأنا لا اتخذك بمثابة معلّم فقط ، بل كمحسنٍ أيضاً .

تلفّظ سليم بهذهِ الكلمات ، وسقطت الدموع من عينيهِ .

فتأثّر المعلم يوسف فقال :

— اذن انت خارج من المستشفى ؟ كأن لم يكن أحدٌ يعتني بك ؟

أجاب سليم :

— ليس لي عيلة . هو سوء حظي جعلني أقتدي بكثير من الشبّان الذين يهجرون القرى وينتقلون الى المدن . ولقد عُوقبت على ذلك . وها أنا أُطلعك على « تذكرة النفوس » ، وعلى أوراقٍ أخرى تدلّ على حسن سلوكي . ودفع اليهِ شهادات صديقهِ ، المرحوم حبيب الأسياوي .

فقرأها يوسف وقال :

أرى أنك قد اشتغلت في معامل حياكة ؛ فلعلّك لا تفهم الحراثة ما هي .

اجاب سليم :

— مُرني بعمل لا يقتضي وقتاً طويلًا ، فترى

ففكر المعلم يوسف هنيهة ، وقال في نفسه : « نحن في يوم أحد ؛ فلا اقدر أن أصحب هذا الشابّ الى الحقل لأطّلع على مبلغ معرفتهِ بالحراثة . » ثم التفت الى سليم وقال :

— تعال . واقرن الفدّان الى المحراث ، لأرى .

ودعا يوسف زوجتهُ وابنتهُ لينزلا معهُ الى المراح . وهناك أشار الى ثورين يخوران بهدوء ، وقال لسليم :

— ها هما .

فحلّ سليم قيود الثورين وأخرجهما من المراح . ونظر أمام الباب نيرًا ومحراثاً . فسأل :

— ما اسم الثورين

— اسمهما شعنين ، وأكحل .

فنادى سليم :

— تعالَ ، يا شعنين !

وبطرفة عين جعل النير على عنقهِ ، ونادى : « أكحل ! » فأتى هذا من تلقاء نفسهِ وجعل عنقهُ تحت النير .

فهتف المعلم يوسف :

— عشت ، يا شاب ! انت — والحق يُقال — فلّاح ماهر ! فقالت الامّ في نفسها : « اللهمّ ! لك الشكر ! »

وحاول سليم ان يكتم فرحهُ ، وقال .

— أراضٍ أنت عني ؟

— نعم . حلَّ الفدان وأعِدْهُ الى المراح . وبعد ذلك نتحدّث .

فقاد الثورين الى المراح ، وربطهما ، وعاد الى ابيهِ وقال :

— بماذا تأمر الآن ؟

اجاب يوسف :

— قد اكتفيتُ بما رأيت . هيَّا الآن نشرب كاس عرق . وكانت يوسفية وابنتهـا قد أعدّتا ليوسف خمسينيّة من العرق الجيّد ونقولات لذيذة . فملأ يوسف كأسين ، واحدةً له ، والاخرى لسليم ، وقال :

— هيَّا . على صحّتك !

فاجاب سليم :

— يطوّل عمرك !

وبعد أن شربا ، قال الاب :

تعال الان نتكلّم عن الشغل . كم تطلب مني مشاهرةً ؟

— أنا غير عارف بمـا يُدفع عندكم في الشهر عادةً . لذلك لا أشارطك ؛ بل ارتضي بما تدفعهُ اليَّ .

— لا ، بل اطلب ؛ وترى .

— اذن اطلب ثماني ليرات سورية في الشهر . واذا لم يُرضكَ شغلي ، فلك

أن تصرفني في آخر هذا الشهر .

— حسن . واذا كنتُ مسروراً منك ، دفعت اليك في كل شهر عشر ليرات ، بدلاً من ثماني ليرات

وصافح يوسف يد ابنهِ علامة الرضى .

وكان تأثر الشاب المسكين عظيماً . فأغمض عينيهِ نصف إغماض ، إخفاء لما ينبعث منهما من أشعة السرور . وانفردت الامّ في زاويةٍ هنالك ، وهي لا تكاد تملك دموعها .

وكانت ساعةُ إرجاع البغلة قد دنت . فذهب المعلم يوسف بابنهِ الى الحقل . ولبثتْ وديعة مع امها ، وقالت لها :

— عجبتُ ، يا امي ، من استخدام ابي لهذا الشاب ، وهو لا يعرفهُ .

اجابت الام :

— لم نجد غيرهُ ، يا عزيزتي . والاجير الصغير لا يكفي . ولعلّ هذا الشابّ المجهول يكون نشيطاً أميناً .

قالت وديعة :

— نعم ، وليس في هيئتهِ ما يدعو الى القلق .

ورأت الامّ أنها لا تقوى على كتم فرحها ، فقالت لابنتها :

— إمضي الآن يا وديعة ، وتفقدي الخواريف . وأنا أُعدُّ لهذا الشاب فراشاً . وبعد نصف ساعة ، تُرجعين الخواريف .

خرجت وديعة . وشعرت الامّ أن رجليها عادتا لا تستطيعان حملها ، فاستلقت على كرسيّ ، وراحت تحدّث نفسها ، وهي لا تكاد تعلم أفي يقظة هي أم في منام . وتحدّرت دموعها على خدّيها ويديها ، واخذت تتمتم وتقول ! « آه ! يا الهي ! لك الشكر ! سليم ! . . ولدي ! . . . »

ثمّ نهضت الى الخزانة وأخرجت فراشاً ولحافاً نظيفين ، وحملتهما الى حجرة

صغيرة، وراء المطبخ. وكانت تودّ لو تفرش لهُ في أجمل غرفة. وبعد ان هيّأت لـهُ جميع ما يلزم، خرجت من تلك الغرفة، وهي تعِدُ نفسها بان تعود اليها لتجتمع بولدها، متى نام الجميع، وتعانقهُ معانقة الفرح.

وبعد حين سُمع ثُغاء الخواريف والنعاج والحملان. وفتحت وديعة باب الحظيرة، فجعل القطيع يثب دلالاً وفرحاً. وأقبل كلُّ حملٍ يفتِّش عن أمهِ؛ وكلُّ امّ تفتِّش عن صغيرها. وولجت الحملان تحت بطون أمّاتها تطلب الضرع وقد امتلأ حليباً، وجثت على يديها ورجليها لترضع براحة وسهولة؛ فكان الزبـد الابيض يتدفّق من شفاهها الوردية، بينا كانت أُليُها الصغيرة تتحرّك وتبصص دلالةً على السرور. ولمّا ارتوت، أخذت تجري ناصبةً آذانها الصغيرة، وهي تثب وتقفز، فيخيّل الى النـاظر انَّ هناك مرقصاً. وكانت النعاج تنظر بأعين هادئةٍ مسرورةً بعبث ولهو صغارها.

وكانت وديعة لا تشبع من هذا المشهد اللطيف. ولمـّا تعبتْ من التأمل في أولئـك المجانين الصغار، وهم يثبون حتى ضاقت منهم الانفاس، عمدتْ الى قضيب وأقبلت تطاردهم. أمـّا الحملان، فلم تكن معجّلةً في الدخول الى الحظيرة، فأحاطتْ بالفتاة، وواصلت الرقص والوثب. ولو لم يأتِ الكلب لمساعدة وديعة في إدخال القطيع الى الحظيرة، لأقامت الحملان طول المساء في وثب وقفز.

وكان قد حان وقت العشا، ورجـع الجميع الى البيت. فجلسوا للأكل متربّعين حول «الطبليّة». وكان سليم يحسب نفسهُ في حلم، وقد وجد ذاتهُ في تلك البيئة العيلية، إزاءَ أبيه كمِنْ ذي قبل. وكانت النافذة مفتوحةً، والنظرُ يُشرف منها الى قسم من البستان، وقد بسط القمرُ أشعّتهُ، فزاد الاشجـارَ اخضرارًا؛ وحـطَّ بلبلٌ عـلى غصن شجرة، وراح يصدح في ذلك الهواء الصافي، بأطيب الالحان؛ ونقيق الضفادع متصاعد من الوادي. فكان ذلك

الضجيج الحقلي ألطف والذّ الى السمع من صفير «الترامواياات» وضجيج السيّارات التي تملأ جوّ بيروت وتمزّق الآذان.

وطال جلوس العيلة إلى الطعام. وكان سليم يخبر الحضور انه اشتغل عند ملّاكٍ في راس بيروت، وان هذا الملّاك كان يكثر من الاستفسار عن كيفية تشذيب (تشحيل) الاشجار، وعن الوسائل المؤدّية الى الحصول على غلّات وافرة من التفّاح والسفرجل والقنبيط والملفوف والخسّ والفجل، الخ. وأنه، اي سليماً، كان يفقّهُ في ذلك، فكان الاختبار يأتي بأفضل النتائج.

وكان الأَجير الصغير، الياس، مُغفياً في زاوية من زوايا البيت؛ والهرّة جاثمة أمام وديعة، وهي كأنها مُصغية الى الحديث.

ثم نهض الاب قائلاً:

— غداً نواصل الحديث في هذا الشأن؛ امّا الآن، فالى النوم.

وكانت وديعة قد اشتدّ عليها النعاس، فصلّت ونامت.

وقال الاب لامرأته:

— أنا خارجٌ لاتعهّد المراح، وأَدور في البستان دورة؛ امّا أَنت، فدلّي الشابّ على غرفتهِ.

فاشعلت الامّ مصباحاً، واشارت الى ولدها، فتبعها. ولمّا وصلا الى الغرفة وخلتْ بهِ، قالت له:

— هناك فراشك، يا عزيزي «حبيب». ليس هو أفضل فراش عندنا؛ لكنّهُ نظيف ووثير.

— هذا كثير عليَّ، يا أمّاه! حسبي سعادةً اني رجعت الى البيت. وما كنت لأَطلب سوى فراش من موص (قشّ) أنام عليه، وملحفةٍ اتغطّى بها.

— قد جعلتُ مباذلك (ثياب الشغل) على هذا الكرسي. وقد صارت هذه المباذل بالية، فسأشتري الك غيرها، دون ان يعلم أحد. كم قميصاً عندك؟

— عندي ثلاث قصان، تركتها في الفندق عند الياس جرجس.

— من الآن فصاعداً لا تهتمّ لشيء. سأشتري لك كل ما تحتاج اليه، ولا اتناول من الاجرة التي تأخذها من ابيك، إلّا قليلاً. صلّ الآن. وسأعود اليك، متى نام الجميع. وعانقتهُ بكل فرحٍ وخرجت.

وأحسّ سليم بأن أيام الهموم والاحزان قد عبرت؛ فلم يبقَ لهُ الّا ان يبذل الوسع في نيل عطف أبيهِ؛ ورأى ان ذلك غير صعب عليهِ. هو الآن، بعد تلك السنين العصيبة، في أشدّ الحاجة الى الهدوء والسلام. وما هذهِ الوحدة وهذا السلوان المحيطان بهِ، إلّا مقدّمة لراحة البال والهناء. وأبصر، حتى في شعاع القمر المنبسط من الكوّة على الفراش، ضياءً يشير الى أنوار الرجاء التي تنفذ في أعماق القلوب اليائسة فتعزّيها وتجلو عنها دُجى الأحزان. وشعر أن حياتهُ قد تغيّرت من حالٍ الى حال. والفضل في هذا التغيّر، لا يعود اليهِ، لانه رأى نفسهُ غير مستحق لذلك، بل هي فضائل أمّهِ الحنون وصلاتها الفعّالة قد أمالت اليهِ قلب الله.

تلك هي الأفكار التي تعاقبتْ صُوَرُها أمام ذهنهِ. فجثا وراح يُصعد الى الآب السماوي أحرّ عواطف الشكر.

ولبث مستغرقاً في الصلاة، حتى انهُ لم يسمع خفيف وطء امّهِ، وقد دخلت عليهِ. فلم يشعر إلّا ويدها تلاطف عنقهُ. ففتح عينيهِ، فأبصر، على ضياء القمر، وجه أمّهِ منحنياً الى وجههِ، فقال بصوت مازجهُ الحنان والدموع.

— آه، يا أمي الحبيبة! كيف لي أن أشكرك على هذا الحبّ!...

يمكنكِ الآن ان تمضي وترقدي بهناء. أنا شاعرٌ أني سأبقى هنا طويلاً. وسأبذل كل طاقتي ليكون أبي راضياً. وسأكون مطيعاً نشيطاً منتبهاً كلّ الانتباه، فأبادر الى قضاء رغباتهِ، فيحملهُ سلوكي على ان يتعلّق بي، فيغفر لي متى عرف اني ولدهُ!

الفصل الرابع

الى العمل !

لاح الصباح ، وصاح الديك ، ففتح سليم عينيهِ . وكان القمر قد أوشك ان يغيب ، فلم يترك من نورهِ سوى ضياء ورديٍّ داخلٍ من خلال النافذة الى غرفة سليم ، فلوّن جدرانها بلون قرمزي ، دليلًا على ان النهار غير بعيد . فهبّ سليم من نومهِ ولبس ثيابهُ وأقام ينتظر حتى يُدعى .

وبعد هنيهة ، سمع في فناء البيت خفقَ نعل ابيهِ ، وهو يوزّع العلف على الحيوانات . وقامتْ في المطبخ قعقعة المراجل (الطناجر) ، فعرف أن امّهُ قد استيقظت ايضاً ، فلم يملك النفس عن الخروج . ففتح باب غرفتهِ وظهر أمام أمّه . فلمّا رأتهُ ، هتفتْ :

— قد قمتَ من النوم ؟

فأومأ براسهِ أن نعم ، وسألها بصوتٍ منخفض :

— أنتِ وحدك ؟

— نعم ، فإنّ وديعة لم تستيقظ بعد .

فتعانقا . وخرج سليم الى الفناء فلقي أباهُ فقال هذا لهُ :

— قد استيقظت انت ايضاً ! . . . ألحقّ أنّك نشيط !

اجاب سليم :

— ستتحقق ذلك فيما بعد . ماذا تريد أن أعمل الآن ؟

إمضِ واستقِ ماءً للمواشي .

فمضى .

وبـدأت أبواب البيوت تُفتح ، وأخذت الأصوات في القرية تتصاعد : هناك كلابٌ تعوي ؛ وهنـاك اصوات رعيان تنادي القطعان ، وهنا ديوك تصيح في وجهِ الهواء . وظهرتْ في زُرقة السماء قطع غيوم ورديّة تتراكض وتجتمع جهة الشرق فتلوّنها الشمس المشرقة بلونٍ احمر زاهر .

فقال المعلم يوسف :

— السماء حمراء : فلا بـدَّ من أن يكون مطر . عجّلوا ، يا بَنيّ ، في العمل ، فننتهي من الفلاحة . لانهُ اذا نزل المطر ، فلا يعود يمكننا ان نحرث الأَرض إلّا بعد ايام .

وبعد ان أفطروا ، ذهبوا الى حقلٍ في ضواحي القرية ، جهة « حراجل » . وعكف الياس ، الأَجير الصغير ، على إتمام ما بدأَ بهِ أمس . وكانت أَفكار يوسف موجّهة الى سليم ليتحقّق مهارتهُ .

ونادى سليم : « شعنين ! أكحل ! إلى العمل ! »

فمشى الثوران باسطَي العنقين ، بارزي العضلات . وسار المحراث يشقّ الارض ويفتح أثلاماً مستقيمة ، ليس فيها أقلّ اعوجاج . ولمّا انتهى ، قال :

— هل الفلاحة على خاطرك ، يا معلّمي ؟

— نعم ، هي من افضل فلاحة .

وواصل يوسف الكلام بصوتٍ منخفض وقال : « ما عرفت الّا واحدًا يفلح هكذا . »

قال سليم :

— من هو ؟

اجاب يوسف :

— انت لا تعرفهُ . وقد مضى على تركهِ الفلاحة زمانٌ طويل .

وظهر العبوس على وجهِ يوسف ، فتنحّى الى بعيد .

وتحوّلت ألوان الغيوم من احمر الى رماديّ قاتم ، وراحتْ تتلبّد في السماء .

وهبَّ من جهة الغرب هواءٌ خفيف بارد إيذاناً بدنوّ وقوع المطر .

وعند المساء قال يوسف لامرأته :

— مسرورٌ انا اليوم ، فقد وجدت من هذا الأَجير الجديد فلّاحاً ماهرًا .

ومضت الامّ تحمل هذهِ البشرى الى ولدها . فرأَتهُ نائماً نوماً هادئاً هنيئاً .

وكان ذلك الاسبوع اسبوع مطر ، كما سبق المعلم يوسف وقال ؛ وتوقّفت أعمال الفلاحة ؛ لكن يوسف والأَجيرين لم يُعطّلوا ؛ فإن البستان لا يخلو من عمل .

وقد كانت الايام السابقة ، ايام صحو وجفاف ، فجاء ذاك المطر في حينهِ ، مصحوباً ببروق ورعود . وأَشرقت الشمس بين مطرتين ، وبدا قوس السحاب ساطعاً ببهيّ ألوانه .

وارتوت الارض من المطر ، ولاسيّما أرض المعلم يوسف ، بعد أن قلبتها تلك الفلاحة الجيّدة ، فبدت بلسان حالها تنطق بلغةٍ لا يفهمها الّا من ثبتوا على مناجاة الارض ؛ لغةٌ خارجةٌ من فم العُشبة البارزة ، والزهرة المتفتّحة ، والشجرة المُورقة . سليم لم يفهم ، فيما سبق ، تلك اللغة ؛ أو بالحري ما كان يشاء أن يُصغي اليها ؛ امـّا الآن ، فقد شفي من جنونهِ ، فصار يصيخ لها ويفهم .

كانت تلك الارض تقول :

— إلبث قربي ، فـأنا أعرف أن أثيب الأَوفياء ؛ واذا هم حرثوني بحبّ ونشاط ، كافأتهم على الواحد بمائة . لا تخف أن توسخ يديك ، وأنت تفلح ، فأنا لست رجسة نجسة ، ففي أحشائي كل شيء يتطهّر . واذا رأيت الوحل على

ثيابك ، أو الغبارَ على وجهك ، فلا تخجل ! فهو وحل نقيّ ليس فيهِ من جراثيم المدنيَّة شيء . واذا أحدٌ هزأ من مهنتك الشريفة ، واحتقرك ، فاضحك انت من سخافة عقلهِ ، وليكن احتقارك لهُ أشدّ من احتقارهِ لك : فانت ، في سذاجتك ، أشرف وأعظم قيمةً من الغنيّ الغير النافع ، الذي لا يعرف كيف يقضي الايام التي يجود بها اللهُ عليهِ ؛ فيروح يدفع الضجر بالعكوف على التسليات الباطلة والملاهي المخجلة .

أنا أمّ البشر ؛ وكل شيء يعود اليَّ ؛ وأنا أستطيع ان أهزأ بمن يحتقروني ، لأني سأكون لهم مدفناً ! يا بُنيّ ! أحبَّ ارض آبائك ؛ هذهِ الارض التي نشأتَ عليها ؛ وهي ، في مستقبل الايام ، تلطف بجسمك ، حين تعود فتصعد الى ابيك السماوي ، ويداك ممتلئتان من استحقاقاتٍ اكتسبتها بالعمل والفضائل .

تلك كانت لغة الارض ، وقد قالت اموراً كثيرة غير هذه . وكان سليم ، اذ ذاك ، يُصغي اليها بمنتهى الخشوع . وكان ذلك الصوت متصاعداً من كل مكان : من السماء الزرقاء ، والنجوم السابحة في الجوّ ؛ وكان يتنقل متطايراً على أجنحة النسيم اللطيف ، فيبلغ أشعة الشمس ؛ تلك الشمس التي هي أمّ الطبيعة ؛ وهي من الاعالي تنظر الينا بعينها الواسعة الساطعة . ذلك الصوت كان خارجاً ايضاً من صداح البلابل ، وتغريد الحساسين والكناريّات وجميع العصافير التي كانت في ذلك الحين تصنع أعشاشها في السياجات وأغصان الشجر وأفنان العلّيق ؛ بل كان يُسمع أيضاً من حفيف طيران النحل ، وطنين الحشرات ، وألوف حركات الحقول . ولو أن تلك الاصوات خرجت منفردة غير مجتمعة ، لم يكن لها من معنًى ؛ لكنها اذا اجتمعت جميعاً ، أَلّفت موسيقى ، هي ، لمن يعرف ان يُصغي اليها ، ألذّ النغمات وأعذبها .

وكان سليم ، في ذلك الحين ، يسأل نفسهُ ويقول : « كيف استطعت ،

فيما مضى ، أَلَّا أتسمَّع الى اصوات هذهِ الحقول العذبة اللذيذة ؟ أين حياة المُدن المضطربة ، من حياة وهدوء الحقول ، حيث السلام السائد يبتلع كلَّ قلق وهمّ ! ولو أني هجرت أرضاً قاحلة ، لا خصْب فيها ، لكان في الأَمر ما يُقال ؛ لكنّ هجر ارضٍ كهذه ، إثمٌ لا يُغتفر . نعم ليس جميع الناس اغنياء ؛ ولكن ما هو شقاء الحقول ، حيث الجميع يتعاونون ويتحابّون ، إزاء شيء من هموم المدن ! ... هنا ، اذا نزلت البلية بأحد الناس ، تسابق الجميع الى مساعدته ؛ اما في المدن ، فهيهات ان يرى البائس يداً تُعينه . واذا مات في المستشفى ، فلا يكاد يمشي في جنازة ذلك المجهولَ أحد ؛ فيُدفن في ارض غريبة وفي قبر الغرباء ...

جميع هذه الخواطر مرّت بذهن سليم وذكّرتهُ بما قاساه في المدينة ... فلو انَّهُ مات فيها ، لذهبت بذكرهِ الرياح ، ولم يفكّر فيهِ احد !

فرفع قلبهُ الى الله وشكرهُ على توفيقهِ إياهُ في الرجوع الى قريتهِ ، حيث صار يرجو أن يرقد يوماً بين أجدادهِ في سلام .

نعم ، صار سليم يحبّ هذه الارض التي رحّبت بهِ أفضل ترحيب ، وأفرغت العزاء في قلبهِ ، وتمثَّلت لهُ جميلةً كالعروس ، مزدانة بالسنابل والخضرة والازهار والثمار . فشعر بابتهاج لا مزيد عليهِ ، وانطرح على الارض وقبّل ترابها بخشوع ، وسألها المغفرة والصفح عن تركهِ لها .

. . .

لم تكن الساعات كلها عذبة لدى سليم ؛ بل كثيراً ما شعر بأن اليأس يكاد يسطو عليهِ ويتملّك قلبهُ ، اذ كان يرى نفسهُ في تلك الحالة المجهولة . فكان يتألَّم كما يتألَّم كلُّ احدٍ من شيء مؤسّسٍ على غير الصدق .

ذات مساءٍ ، بعد مطر شديد ، مضى سليم الى أطراف البستان ليسدّ

بأغصان الشجر ثغراً فتحت في سياج الحظيرة، صداً للقطعان عن الخروج منها. وكانت الغيوم قد تبددت، وظهرت الشمس؛ لكنّ المطر كان يتبعهُ عن بُعدٍ. فما هو غير حين، حتى وقع مطرٌ طحوم. فلجأ سليم الى سنديانة هناك، وأسند ظهرهُ الى جذعها. فكان المطر لا يخترق الاوراق. وكان الشاب يُصغي الى اصوات قطرات المطر تسقط من حولهِ. وهو كذلك، اذ شاهد أباهُ آتياً، وبيدهِ عالة (شمسيَّة)، وعلى كتفهِ رداء.

فنادى الابُ:

— هل تبلَّلت؟

— لا، فإن السنديانة قد وقتْني.

— قد تذكَّرتُ انك أُصبتَ فيما مضى بذاتِ الجنب، فلحقتُ بك. خذ هذا الرداء.

فهتف سليم، والدمع في عينيه:

— آه، يامعلمي! ما أرقّ قلبك!

فقال الاب:

— لمَ لمْ تجيْ بشيء تلتحف بهِ؟ في مثل هـذا الوقت، لا يخرج الانسان دون رداء.

— ليس عندي رداء.

— خذ هذا، هو لك.

فعظُم تأثر سليم. وازداد تسكاب المطر، فلم تقِها العالةُ معاً. فجعل يوسف ذراعهُ على كتف ابنهِ وضمَّهُ اليهِ. فشعر ذلك الولد المسكين، وقد رأى نفسهُ مضموماً الى صدر أبيه، برعشةٍ شديدة، حتى انهُ كاد يسقط الى الارض. فاغلق عينيهِ، وعلا الاصفرارُ وجههُ. فلحظ الاب ذلك، فظنَّهُ مسبيّاً عن مفاجأة البرد. فلامهُ ثانيةً على خروجهِ دون رداء. فهزَّ سليم

رأسهُ، كأنهُ يقول: «ليس هذا من البرد.» وحاول ان يتكلّم، فمنعهُ البكاء.

عجباً! ايّ شيء كان يحول بينهُ وبين ذلك الاب الحبيب والمخوف معاً؟ لم يكن شيء سوى اللّعنة الوالدية التي كان ينوء بها، وهي تكاد الآن تسحقهُ!

وصلا الى البيت، فأمر الاب أن يُهيَّأ لسليم كأسٌ من الشاي. امّا الشاب، فأبى. وعاد لون وجههِ طبيعياً، فأطمأن الاب وخرج.

وكانت العاصفة قد هدأت، وانقطع المطر. فانتهز الرعيان هذه الفرصة، فسرّحوا قطعانهم في المروج. وخرج سليم الى الطريق يتمشى مفكّراً.

وكانت فتاة مارّة من هناك، فلم يشعر بها سليم، حتى دنت منهُ وقالت:

— الله معك!

فرفع سليم رأسهُ، ولم يكد نظرهُ يقع عليها، حتى اهتزّ قلبهُ، فأجاب بصوت لا يكاد يُفهم:

— الله يحفظك!

ومرّت الفتاة. وتبعها سليم بعينيهِ، حتى ابتعدت.

وكانت الفتاةُ، حيناً بعد حين، تلتفت وراءها متظاهرةً بأنّها تراقب قطيعها؛ لكنّها كانت تنظر خفيةً الى سليم، وهو ينظر اليها. ثم ادارت رأسها خجلةً، وخفضت نظرها وواصلت السير.

هذهِ الفتاة هي «وردة» نفسها.

ولمّا توارت خلف أغصان الشجر، جلس سليم، وعاد لا يستطيع العمل.

تلك هي المرّة الاولى التي شاهد فيها سليم وردة، بعد رجوعهِ الى ميروبا. ورأى أن تينك العينين لا تزالان تؤثّران في قلبهِ؛ لكنه شاهد فيهما الان

شيئاً من الحزن ؛ وأبصر أنّ وردة، صارت شابّةً ممتلئة الجسم ؛ ولحظ من هيئتها أنها قاست بعض البلاء.

ولكن ما عسى أن يكون سبب حزنها ؟ ولِمَ لم تتزوّج، مع ما هي عليهِ من الجمال وسعة الحال ؟

وتذكر سليم كلام أُمّهِ حين قالت له: « أظنّ أنّ في قلبها حزناً. » فقال في نفسهِ: « تُرى، هل أنا سبب حزنها ؟ » وأحسّ بأنّ في هذا الفكر شيئاً من العُجب ؛ فدفعهُ عنه وقال: « هل لها أن تحزن لبُعدي، أنا القاسي القلب، الجبان ؟ . . . لا ! بل الأحرى بها أن ترذلني وتحتقرني ! »

ثمّ عاد وتذكّر كيف أنها صارت تلتفت اليهِ خفيةً ؛ فقال في نفسه، والحزن يكاد يقتلهُ: « تُرى، هل عرفتني ؟ . . . لا ! ذلك محال ! فان الجميع يحسبوني غريباً، أجيراً عند المعلم يوسف، وينادوني باسم « حبيب »، وذلك لستر الحقيقة عن كلّ عين . . . اذن يسعني ان اكون مطمئنّ البال ؛ فما من أحد مطلع على أمري إلاّ امّي وأنا. »

لكنهُ أحسّ بانزعاج. ولمّا وصل المساء، ترك العمل وخرج تائهاً يتمشى في الطريق المؤدّية الى « حراجل »، متظاهراً بأن يتنزّه. وكان يعلم أنّ لوردة هناك حقلاً غير بعيد. فسار يودّ أن يراها مرّة ثانيةً، ولو عن بعد.

ما هو غير حين حتى لمحها جالسةً عند جذع شجرة سفرجل، وذراعاها ممتدّتان على ركبتيها، ورأسها بين يديها، وهي تفكّر. فشعر بأن قد خانتهُ جميع قواه، وأنّ الدمع يكاد يطفر من عينيهِ حزناً على حالهِ وتستُّره. فان تلك الفتاة، الجالسة هناك، قد احبّتهُ فيما مضى ؛ وجلوسها الآن على تلك الحالة يدلّ على أنها لا تزال ثابتةً على حبّهِ. وما عسى أن يكون غضب أبيهِ إزاء ما استولى الآن على قلبهِ من الحزن ؟ فقال في نفسهِ: لمَ هذهِ الآلام ؟ ولماذا كل هذا الجهاد، وأنا أشعر أني مغلوب على أمري ؟! . . . الاحرى بي

أن أموت الآن وأنجو من هذه الحياة !...

ثم عاد يفكر في نفسه، فقال: «لا ! ليس للشاب أن يكره الحياة، وهو في زهرة العمر ! انّ على الشاب واجباً ينبغي له أن ينهض بهِ . وانا، مهما كانت حالي الآن سيّئة، فيجب عليَّ ألَّا أقنط ! لا يكرهُ الحياة ويعمد الى الانتحار هرباً من العناء، إلاَّ كل نذل لئيم ! امَّا رجال الواجب، فهم أبدًا رابطو الجأش، مهمَّا اشتدَّ البلاء..»

إذا كانت «وردة» قد تحولت عن حبهِ، ورآها هو سعيدةً مع غيره، فذلك يكون عقاباً لهُ ؛ وقد استحق هذا العقاب.

وحاول سليم أن يستعيد طمأنينة القلب، فلم يستطعْ. ولمَّا جلس للعشاء، ظهر على وجههِ أنهُ مضطرب مخطوف. ولحظتِ الأمُّ تغيّره. فلمَّا خلت بهِ، قالت لهُ:

— ما بك، ياعزيزي ؟ هل حصل لك ما يكدّر ؟

— لا، يا أمَّاه !

— إذن لماذا انت كئيب ؟

— شاهدتُ وردة.

— شاهدتها ! هل عرفتك ؟

— لا أظنّ.

— وما الداعي الى هذا الحزن ؟

فلم يُحرْ سليم جواباً. ورأت الام أنّ الدمع يجول في عينيهِ، ففهمت، فطوّقتهُ بذراعيها وجعلت تلاطفهُ وتسعى لإزالة غمّهِ.

فتشجّع الابن، وأفضى الى أمهِ بسبب حزنهِ.

فقالت الام :

— إذن لا يزال حبُّها في قلبك ؟

— بل هو الآن أعظم مما كان عليهِ في ما مضى.

— آه! يا أمي! لا يعرف المرء قيمة السعادة إلّا اذا خسرها.

— لا، لا تقل انك خسرتَ السعادة!

— بحقكِ! يا أماه! لا تُريني أملًا لا يُحقّق؛ فذلك يزيد في ألمي؛ فضلًا عن أني مستحق للعقاب!

بعد ايام أتى أحد الجيران الى المعلم يوسف، وأخبرهُ أنَّ «طنوس» أجيرهُ السابق، يريد مقابلته.

فقال يوسف:

— ما يريد هذا الخبيث؟

والتفت الى سليم وقال:

— تعال معي، يا حبيب، لنرى ما يكون.

فرأى سليم في دعوة ابيهِ لمرافقتهِ، دليلَ ثقة بهِ. فرافقهُ الى بيت طنوس.

الفصل الخامس

الاجير الخبيث

ليس طنوس ذا هيئةٍ مخيفة ؛ بل هو قصير القامة ، مقوّس الكتفين وذو وجهٍ أصفر . لكنك اذا حدّقتَ الى عينيهِ ، رأيت الخبث ينبعث منهما ، فتأكد لك انهُ ذو نفس دنيئة سافلة .

وأُمّهُ « شمونه » ، امرأةٌ ذات أخلاقٍ ساقطة ، تعيش من السرقة والنهب . فاذا فقدَ احدُ القرويين دجاجةً ، أو رأى شجر التفاح مسروقاً ، او البطاطا مقتلعة ، حكمَ حالاً بانّ « شمونه » مرّت من هناك . ولم تكن سرقاتها تخفى على أحد ؛ لكنَّ أهل ميروبا أهل سلام ، لا يحبون القيل والقال ؛ فلم يرفعوا أمرها الى المحكمة ، تخلُّصاً من شرّها . فكانوا ، اذا فاجأوها وهي تسرق ، اكتفوا بتوبيخها . ولكن ما يفعل التوبيخ في قلب ساقط .

عاش بنوها على خاطرهم ، فكانوا ابداً يجولون في الطرق وبين البساتين ، يسرقون وينهبون .

وطنوس ، بكرُ اولادها ، كان في حداثتهِ جميل الطلعة ، لطيف الحديث ؛ فما رأهُ احدٌ إلّا قال : « حقاً لقد صدق المثل العامي القائل : القِرده بتخلّف ورده ، والورده بتخلّف قرده ! »

لكنَّ اخلاق طنوس ما لبثت أن ساءت ، بسبب ما كان يراهُ من أمثال

أُمّهِ. ولمّا وصل الى السنة العاشرة من عمره، دخل في خدمة المعلّم يوسف، فلم يرَ أمامهُ إلّا أمثلةً صالحة. ولو هو مكث عند المعلم يوسف طويلًا، لاستفاد ونشأ شاباً صالحاً؛ لكنهُ ما بلغ الخامسة عشرة سنةً، حتى انتقل الى خدمة رجلٍ آخر. فكان هذا يكتفي بأن يسهر عليهِ في وقت الشغل، ثم يُهمل شأنهُ. فصار طنوس يدخّن ويشرب عرقاً، ويُنزل طربوشهُ الى عينيهِ، ويمرّ بالناس ناظراً اليهم شزرًا. ولمّا صار في جيبهِ غروش، اشترى بندقية، وأخذ يذهب للصيد مع بعض الشبّان أمثالهِ، ويقضون الايّام معطّلين. فاذا مرّوا بشجرةٍ مثمرة، أو ببستان فيهِ خُضر، نهبوا وعاثوا فيهِ فسادًا.

. .

وصل المعلم يوسف وسليم الى بيت شمونه، وكانت هذهِ مستعدّةً للخروج. فسلّم عليها يوسف، فردّت من رؤوس شفاهها. فقال لها:

— هل طنوس في البيت؟

اجابت:

— وأين تريد ان يكون!

فقال المعلم يوسف:

— جئت لأراهُ وانظر ماذا يُريد؟

قالت شمونه بصوتٍ جافّ:

— هو هناك تحت الشجرة.

فتوجّه المعلم يوسف وسليم الى جهة الشجرة. وكان طنوس جالساً على مقعد من خشب، وهو مادّ رجليه. فلمّا رآهما، قبض احدى رجليه وأخفاها تحت ثيابه. فقال سليم للمعلم يوسف، بصوتٍ منخفض:

— هل رأيت؟

اجاب يوسف :

— نعم.

ولمَّا وصلا اليه ، قال له يوسف :

— كيف انت ، يا طنّوس ؟

ومدّ يدهُ ليسلّم عليه .

فتظاهر طنوس بأنهُ لم يرَ يد المعلّم يوسف مبسوطةً للسلام، ولم يمدّ يدهُ .

فاصفرّ وجهُ المعلم يوسف ، وقال له :

— ألا تريد أن تصافحني ؟ في عملك هذا أكبر إهانةٍ يُهان بها إنسان .

فهزّ طنّوس رأسه وقال :

— دعوتك لا لأُسلّم عليك وأُصافحك ؛ بل لنُنهي تلك المسألة التي أنت عارفٌ بها .

اجاب يوسف :

— لو كانت مطاليبك معقولةً ، لأنهيناها من زمان .

قال طنوس :

— وانت لو تساهلت ، لكانت انتهت . فالذنب ذنبك ، لا ذنبي . ولكن ، انتم الاغنياء ، اذا طلب احدٌ منكم غرشاً ، فيكون كأنهُ يطلب من الكلب قطعة لحم .

فزاد اصفرار وجهِ المعلّم يوسف ، فقال :

إليك ، يا طنوس ، عن مثل هذا الكلام ! وقل ؛ ما تريد :

— أُريد أن تُعين لي أُجرةً عن كل شهر .

— هل أنت مُقعدٌ كسيح ؟

— نعم أصبحتُ عاجزاً عن المشي الّا متوكّئاً على عكازة : فما تريد أن اعمل لأعيش .

— الآن كنت باسطاً رجلك ؛ ولمّا رأيتنا ، قبضتها وأخفيتها تحت ثيابك .
ومنذ ايام رأيتك ، من بعيد ، ماشياً دون عكازة .
— كنت أجرّب لأرى هل استطيع المشي ، فلم أقدر .
— إسمع ، يا طنوس ؛ انت لا تَصْدُقُ في ما تقول ؛ وهذا يعزّ عليّ . قد حدث ذلك الحادث بذنبك ، لاني كنت آتياً بالسلّم ، فرفضت النزول عليه ؛ ولكن أريد أنا أن أنسى قلّة فطنتك ، وأشاء أن أدفع اليك أجرة الايّام التي قضيتها معطّلا ؛ فهذهِ ، والاجرة التي أدّيتُها الى الطبيب تُساويان مبلغاً ليس بقليل .
— أتجد ذلك مبلغاً مُهمًّا ؟
— واذا كان ذلك لا يكفيك ، فأنا أدفع اليك أيضاً أجرةَ السنة كلّها ؛ أراضٍ أنت ؟
— كلّا ! بل أريد أن تدفع اليّ ثلاثمائة ليرة سورية ، أو أجرةً شهريّة ، ما دُمتُ حيًّا .
فكظم المعلم يوسف غيظهُ ، وقال :
— لا أدفع إليك الّا أجرة السنة ، ولن تنال منّي غِرشاً فوق ذلك .
— اذن تهيّأ للحضور أمام المحكمة في جونية .
— لا تثقْ ، يا طنوس ، بأنّك تربح الدعوى .
— سترى أنّي أربحها وأفكّ رقبتك !
فتلظّى الغضب في صدر سليم . ونظر يوسف الى ذلك الشاب الوقح نظرةً هائلة . ولو شاء أن يدفعهُ بيدهِ دفعةً ، لرماهُ الى بُعد خطوات .
وسُمع صوت شمونة آتيةً ، وهي تصيح :
— لماذا ما أغلقتما باب البستان وراءكما ؟ أنظرا كيف دخلتِ الدجاجات تأكل المزروعات .

اجاب المعلم يوسف :

— قد أغلقنا الباب ؛ وإنّ الدجاجات كانت في البستان، لمـّا دخلنا .

فقالت شمونة ، وهي تصرف بأنيابها :

— اذن أنا فلتُّها ؟ !

وكانت شمونة تتقدّم، وهي واضعةٌ يديها على وركَيها. ولمّا وصلت، قالت:

— هل اتفقتم على الحساب ، وانتهيتم من المسألة ؟

اجاب يوسف :

— نهايتُها بيد طنّوس .

قالت شمونة :

— يعني أنك تريد أن تنهي الامر على مرامك ، يا غنيًّا خبيثاً !

اجاب يوسف بكلّ هدوء :

— إهانتكِ ، يا شمونة ، لا أهتمُّ لها .

— بلا شكّ ! فانا فقيرة ، وانت غني ، وقد صرتَ من الأكابر ! بلْ أنتَ لا قلب ولا عاطفة ، ولذلك قد طردتَ ابنك سليم من بيتك .

تأثّر المعلم يوسف من هـذا التعنيف ، وظهر الغضب في وجههِ ، فزمجر وقال :

— شمونة !

فأجابت :

— قد أثّر فيك كلامي ، يا قاسياً رديئاً ؛ أنا لي أولاد ؛ وليس لهم أب ؛ لكنّي لا اتخلّى عنهم .

فهمّ يوسف أن يضرب تلك الفـاجرة ضربةً تسحق رأسها ؛ لكنّهُ ملك غضبهُ ، والتفت الى سليم وقال :

— تعالَ .

وخرجا من هناك. ولم يرجع المعلّم يوسف الى بيتهِ، بل أدار ظهرهُ الى القرية، وراح يخطو خُطى طويلة.

فسألهُ سليم :

— الى أين، يا معلّمي ؟

— دعني أُروّح النفس قليلًا. واذا شئت انت ان تعود الى البيت، فلا مانع.

فنظر سليم الى ابيهِ نظرة إشفاق، فإنّ ذلك المشهد أثر فيهِ شديدًا. واذا كان ذلك الشيخ يتألم الآن، فما ذلك إلّا بسببهِ. فقال لأبيه :

— يا معلّمي، لا تستسلم للكدر، فان تأثرك يسرّ تلك الخبيثة.

— لقد جرحتني في قلبي. وقد كدت انقضُّ عليها وأخنقها خنقًا... تقول عنّي إني ابٌ قاسٍ رديء ؟!

— قالت هذا كي تغمّك وتحزنك.

— وانت، أتعتقد أني طردت ولدي ؟

فاجاب سليم بكلّ رزانة :

— لا، لا اعتقد ذلك.

— هو ذهب بملء رضاهُ ؛ وقد أحزنني ذهابهُ ؛ والى الآن لا ازال حزيناً عادم التعزية.

— هل تفكر فيهِ بعض الأحيان ؟

— أتظنُّ، حين تراني مستندًا على مرّي، أحسُبُ أرباحي من البستان ؟ لا ! بل أكون في ذلك الحين أُفكر فيهِ...

فودّ سليم اذ ذاك ان ينطرح أمام ابيهِ ويقول له : «ابت، انا هو ولدك !» لكنّ الشيخ المسكين كان حينئذٍ يرتجف من التأثر، فخشي سليم أن تكون عاقبة تلك المفاجأة سيئة. فاكتفى بأن قال له :

— أتردّهُ ، اذا رجع اليك ؟

— رُبّما . وعلى كل حال ، أنا بسببهِ قد نلتُ الآن ما نِلت .

هذا الجواب صرف سليم عن فكرة التعرُّف الى أبيهِ .

وبعد صمتٍ طويل ، قال سليم :

— أما حان لنا أن نعود الى البيت ؟ ان معلّمتي تكون الآن في قلق لطول غيابنا .

— أصبتَ .

وأدار يوسف وجههُ الى جهة البيت وقال :

— نعم ، يجب أن لا نُقلق بالها . عندها من الهموم ما يكفيها .

وقفلا راجعين .

ولمّا وصلا ، سألتْ يوسيفة زوجها عن نتيجة تلك المقابلة ، فأخبرها . فقالت لهُ :

— رأيي أن تدفع اليهِ ما يطلب : فانهُ اذا أقام عليك دعوى ، سبّب لك مشغلة ، وتُضطرّ اذ ذاك الى النزول الى جونية مرارًا كثيرة ، وأن تستعين بمحامٍ ؛ والمحامون لا يشبعون ؛ ولا بدّ لك أيضاً من شهودٍ : فيصعبُ عليك بعد ذلك أن تتخلّص من هذه المشكلة . وربّما أنفقتَ في هذا السبيل ما يجاوز الثلاثمائة ليرة التي يطلبها هذا الخبيث .

— إذن تريدي ان أدفع الى هذا الماكر ثلاثمائة ليرة ، بلا جدال ؛ وغدًا ، اذ استخدمتُ أجيرًا آخر ، وماكرني وخادعني ، أدفع اليهِ أيضاً ما يطلب؟ . . . ذلك شيء لا يُطاق ! لا ! لا بدّ من تأديب هذا الخبيث ، فيكون عظةً لأمثالهِ .

— وان خسرت الدعوى ؟

— ان خسرتها ، فأكون قد خسرت !

قال سليم :

— ما اظنّ ، أنك تخسرها . أنت معروف بالاستقامة والصدق ، وطنوس مشهورٌ بخبثهِ وخداعهِ . ومن اوّل جلسةٍ في المحكمة ، يظهر بطلان دعواهُ . وأنا أعدك أني ، مدّة غيابك في جونية ، اشتغل في البستان ليل نهار ، كي لا يتعطّل فيه شيء .

فسُرّ المعلم يوسف من إخلاص سليم ، فقال لهُ :

— هات يدك لأصافحك علامة شكري لك .

فتصافح الاب وابنهُ . وكان تأثّر الأم من هذه المصافحة عظيماً ، فأدارت رأسها كي لا تُرى دموعُها .

الفصل السادس

في الكرْم

وصل شهر ايلول ونضج العنب. فكان اهل ميروبا يتردّدون الى الكروم صباح مساء، زرافاتٍ زرافات، وهم ينشدون الاناشيد الروحية، من مثل « عليك السلام بلا ملل ؛ ومجد مريم يتعظم، وان قلبي في هوى مريم. » وبعضهم يتغنّون بالاغاني الوطنيّة، من مثل « الميجانا والعتابا. » فكنت تسمع في معاطف الأودية، وعلى رؤوس الاكام، وتحت الاشجار، وبين الدوالي، أجواقاً مطربة، خاشعة، تحبّب الى السامع بساطة العيشة الحقلية.

وذهب سليم ذات يوم إلى الكرم، عند العصر. وبعد أن تفقّدهُ، وسمَكَ ما لصق بالأرض من الدوالي، جلس في ظلّ شجرة تفّاح هنالك. ولمّا كان الفلّاح لا يُضيع الوقت في الأفكار والاحلام غير النافعة، اضجّع سليم تحت الشجرة، ليرتاح قليلًا، ونشر « كوفيّتهُ » على رأسهِ ووجهه، اتّقاءَ الذباب وحرّ الشمس. وفيما هو بين النائم واليقظان، بلغ أذنيهِ رنين جلجل. فاستوى جالساً ونظر الى ما حولهُ، فرأى فتاةً يتقدّمها كلبٌ صغيرٌ ابيض وهي آتية من جهتهِ، بين الكروم ؛ وفي عنق الكلب جلجل ؛ وعلى صوت ذاك الجلجل استيقظ الشابّ.

وكان بذراع الفتاة سلّة ؛ وهي لابسة ثوباً كحليًّا ذا خطوط بيضاء

وزرقاء ، وعلى رأسها فوطة بيضاء . فحدّق اليها سليم ، فاذا هي وردة ! فقد كانت آتيـة لتتعهّد كِماً لها هناك ، وتحمل منهُ عنباً لأبويها . وكانت تمشي بنشاط ، ورأتهُ ، ولم تتخوّف منهُ . ولمّا مرّت بهِ ، نظرت اليهِ هنيهةً ، وفتحت شفتيها ابتسامةً تتضمّن عاطفة مودّة ، وقالت بهدوء :

— الله معك ، يا سليم !

ثمّ توارت وراء السياج ، تاركةً ذلك الشاب في حالة الجمود والتأثّر . ولمّا أفـاق من بغتتهِ ، نهض ووثب من ثغرةٍ في السيّاج ، فشاهد وردة وقد ابتعدت ، فعدا وراءها وهو ينادي : « وردة ! . . . وردة ! . . . »

فتوقّفت . فعدا مسرعاً . ولمّا وصل اليها ، وقف صامتاً ، لا يمكنهُ الكلام .

فقالت لهُ :

— وبعد ؟

فأجاب بعد هنيهةٍ وقال بلهجةٍ مغتاظ :

— هل عرفتِني ؟

— لم يكن هذا صعباً .

— لكنّ الغير ما عرفوني .

— قد يكون . فهم لا يفكّرون فيك .

— وانتِ ، هل تفكرين فيّ ؟

— انت ، حقًّا ، فضولي (كثير الغلبة) .

قالت ذلك وعبست .

اجاب سليم :

— أُمّي عرفتني لانها تحبّني ؛ وأنتِ . . .

فقالت لهُ بجفاء :

— لا تكمّل كلامك !

وحدّقتْ اليهِ بوجهٍ قد احمرَّ، وعينين ينبعث منهما البرق. أمّا سليم، فكان قد عاد اليهِ ثبات جأشهِ، ولم يُخفهُ غضب وردة، فواصل الكلام وقال :

— كنتِ تحبّيني فيما مضى.

— لم اقل لك شيئاً من هذا.

— وأنا لم أسألكِ عن ذلك.

— إذن كيف تستطيع أن تقول اني أحببتك ؟

— متى كان الانسان ولداً، فلا يصعب عليهِ فهمُ ذلك. اتذكرين انك كنتِ تفضليني على جميع اولاد القرية، كما كنت أنا افضّلك على جميع البنات ؟ وقد كنّا نرقص معاً «بالدبكه»، ونلعب معاً.

اجابت الفتاة بصوتٍ جافّ :

— لو أحببتُك، لكنتَ فكرتَ فيَّ قبل سفرك...

فقال يوسف متأسفاً :

— ذلك عارض جنونٍ عرض لي. وأنا الآن قد استوقفتكِ لا لأُحدّثك عن الحبّ، بل لاسألك أَلّا تخبري عنّي أحداً. انا الآن في البيت كغريب ؛ واني أتوق كل التوقان إلى نيل المغفرة من ابي. لذلك أسألك، يا وردة، أَلّا تخبري أحداً بأنك عرفتني.

— لو أردتُ، لكشفتُ أمرك من زمان طويل ؛ فقد عرفتك من أوّل مرّةٍ لقيتك.

ولم تقولي شيئاً ؟

— لا، فاني لم أُرد أن أتدخّل في شؤون أهل بيتك.

— آه ! يا وردة !... لك الشكر !

وتظاهرت وردة بأنها تريد أن تواصل السير، فناداها سليم وقال لها مستعطفاً :

— الى أين تذهبين غداً ؟

— لماذا تسألني عن ذلك ؟

— أُريد ان ألاقيك لاطلب منك الصفح ، وأُحادثك ، ولو ساعة .

— سأذهب الى النهر .

— أشكركِ ، يا وردة ! الى الغد .

وترك سليم وردة ، وفي قلبهِ أشعّة رجاء ، وعاد فجلس في الظلّ حيث كان . وراح يفكّر في أن وردة ستغفر لهُ ، وأنها تحبّهُ ، وستعدهُ بأن تكون لهُ عروساً .

ولمّا رجع الى البيت ، ودَّ أن يخبر أُمّهُ ويطلعها على فرحهِ ، فلم يجد فرصةً لذلك . لكنّهُ تمكّن من ان يقول لها كلمة ، وهي تغسل الصحون ، وأخبرها بأنهُ سعيدٌ جداً .

فتعجّبت أُمّهُ ، وظنّت ان ولدها قد كشف أمرهُ لأبيهِ ، وان أباهُ قد رضي عنهُ . فتأخّرت في المطبخ ، حتى تستطيع محادثة ابنها ، لكنّ يوسف ناداها وقال لها :

— قد فاتت الساعة العاشرة !

فلم يتّسع لها الوقت ، وخافت أن يلحظ زوجها شيئاً .

وعند الصباح ، كان سليم يحلق في إحدى زوايا المطبخ ، وكانت أُمّهُ تدور من حولهِ . وكانت وديعة قد خرجت مع الخواريف ، والأب ذهب الى أحد الجيران في حاجةٍ لهُ ، فقالت الأُمّ لولدها :

— ما كان سبب فرحكَ أمس ؟

— إن وردة قد عرفتني .

وقصَّ سليم على أُمّهِ ما جرى لهُ مع الفتاة .

اجابت الأُمّ :

— وردة لا تزال تحبّك. وأنا كنت دائماً أفكّر في ذلك. هل تذهب لملاقاتها هذا المساء ؟

— نعم !

— إذن رتّبْ حالك، يا عزيزي سليم، وكن اليوم شاباً ظريفاً. وأنا الآن ماضية لاشتري لك طربوشاً جديداً.

فتبسّم سليم وقال :

— أتظنّين أن محبّة وردة لي تزداد، اذا رأتني لابساً طربوشاً جديداً ؟

— لا، ولكن...

— إذن ما لنا والطربوش. أنا أعرف كيف أؤثّر في قلبها.

— إذا اتخذتها لك عروساً، فأنا أكون مسرورةً جداً.

— وأنا أيضاً !

وكان ذلك اليوم يوم أحد. فبعد القدّاس، رجع سليم الى البيت، ونام حتى يقصّر الوقت ولا يجده طويلاً. وبعد الظهر كان جميع أهل البيت نائمين ؛ ومعظم أهل القرية لم يخرجوا من بيوتهم لشدّة الحرّ. فنهض سليم ونزل الى ضفّة النهر ينتظر.

ولمّا كان العصر، شاهد وردة مقبلةً، وكلبها يجري قدّامها. فلاقاها سليم وقال :

— الله معكِ، يا وردة. قد تأخّرتِ كثيراً.

— كان الحرُّ شديداً، فلم أستطع الخروج قبل الآن.

فجلست وردة على العشب، وجلس سليم إزاءها. وتفرّس سليم فيها وفي ثيابها، فرآها أجمل من الربيع. ولم يكن افتتاح الحديث هيّناً. وكانت وردة أيضاً ساكتةً، والتأثّر ظاهرٌ في وجهها. وبعد حين قالت لهُ :

— طلبتَ مقابلتي لتحدّثني ؟

— نعم ؛ لكنّي لا أعرف كيف أبتدئ الكلام . . . أتيت لأقول إنّ مودّتي لك هي اليوم أعظم ممّا كانت عليهِ من ذي قبل .

— ربّما ؛ ولكن قد فات الحين .

— لا ، لم يفتِ الحين . نحن لا نزال في نضارةِ الشباب . لقد سمحتِ بأن آتي لاجتمع بكِ ؛ وذلك دليلٌ على أنّ حضوري لا يغيظكِ . وردة ، أقرّي بأنّكِ أحببتني فيما سبق ، وأنّكِ لا تزالين الى اليوم تحبّينني ولو قليلًا .

— لماذا تريد أن أُحبّك ؟ وأيّ شيء عملت لتنال حبّي ؟

وكانت وردة تحدّق اليهِ ، وليس في عينيها أقلّ عاطفة . فخشي سليم أن تكون وردة لا تحبّهُ ، وأنّهُ قد خسر مودّتها ؛ لكنّ قلبهُ أنبأهُ أنّ ذلك الغضب الذي رآهُ في وجهها لم يكن إلّا في الظاهر فقط . وتأكّد لهُ أنّها لو كانت لا تريدهُ ، لرفضتهُ من أوّل مقابلة وأوّل كلمة ، وأبت أن تضرب لهُ هذا الموعد .

فنظر اليها سليم وقال :

— إذا كنتِ لا تحبّينني ، فأنا أعود الآن من حيث أتيتُ .

وتظاهر بأنّهُ يهمّ بالذهاب .

فقالت لهُ :

— إجلس !

وحلّ بينهما صمتٌ ذاق فيهِ سليم حلاوة الانتصار ، وذاقت هي خجل الانكسار .

كانت وردة قد أحبّت سليماً حبًّا حقيقيًّا ، ثبتَ رغم الزمان والفراق . وذلك الحبّ تأصّل منذ الصغر . وقد تألّمت وردة من سفر سليم فجأةً ، ورأت في ذلك شيئاً من الإهانة لها . وطالما حاولت أن تنتزع ذلك الحب من قلبها وتستبدلهُ بالكراهة ؛ لكنّ القلب إذا شُغِف بشيء شغفاً حقيقيًّا ، فلا

يسهل عليهِ بعد ذلك أن يتحوّل شغفهُ الى بغض. فإن المحبّ يرَ أعذارًا شتّى تجعلهُ يغضّ الطرف عمّا قد يظهر لهُ من السيّئات في من مالَ إليهِ؛ واذا بدا أن النفور والاحتقار جعلاهُ ينتصر على ميل قلبهِ، فيبقى في ذلك القلب خميرة الحنان القديم. فحسبُ المذنب أن يحضر ويسأل المغفرة، فيزول الحقد من القلب المُهان؛ بل ان هذا القلب يبتهج ويُسرّ بتلك السعادة التي كان يحسبُ أنّهُ قد أضاعها. وإن قلوب فتيات الملوك هي كقلوب القرويّات خاضعة لهذهِ الشريعة، لأن القلب البشري، في كل مكان، هو هو بعينهِ. ولا يشذّ عن ذلك إلّا ذوات القلوب المملوءة من الكبرياء، فهذهِ لا تنسى الاساءة، وتجعل العجرفة تنتصر على السعادة.

امّا وردة، فلم تكن من هؤلاء. وقد علمت أنها اذا رفضت سليماً، أنزلت بهِ عقاباً قاسياً، وتكون هي أيضاً قد حُرمتْ كل رجاء في الحصول على السعادة في هذه الدنيا. لذلك آثرتْ أن تكون سعيدة، فبسطت يدها لذلك الشابّ، وقالت:

نحن لسنا بعدُ أولادًا. فيجب أن نتكلّم بكلّ حرّية. نعم قد احببتك... واذا شئتَ، بقيتُ ثابتةً على هذا الحبّ.

— اذا شئتُ؟! آه يا وردة!

— تمهّلْ! اذا رأيتك أهلًا، ثبتُّ على محبّتك.

— سترين أنّي لا أزال أهلًا لذلك!

— اذا غفر لك ابوك، غفرتُ لك أنا أيضاً. هذا كل ما يسعني أن اقولهُ لك الآن.

— هذا فوق ما كنتُ آملهُ اليوم.

— متى استعدتَ المقام الذي كان لك عند أهلك، أمكنك عند ذلك أن تأتي وتكلّم أهلي في شأني.

— ولكن ، من الآن الى ذلك الوقت ، تأذنين لي أن اجتمع بك ، ايام الآحاد ، كاجتماعنا الآن ؟

— لا ، فإن النـاس اذا علموا أن وردة تجتمع بأجير ، بعد أن رفضت طلب افضل الشبّان في هذه القرى ، ضحكوا عليها وهزئوا بها . ولا بدّ من أن يبلغ الخبر أبي ؛ وقد أحزنتهُ مرارًا اذْ أبيتُ الزواج ؛ فاذا عرف بالأمر ، لامني أشدّ اللوم ، فأخسر راحة القلب وطمأنينة البال . لا بدّ من أن نجتمع اتفاقاً ، فتعلمني حينئذٍ بمـا تكون قد وصلتْ اليهِ حالتك مع ابيك . وثِق ، يا سليم ، أنّ وردة على الوفاء ثابتة .

— شكرًا لكِ ، يا وردة !

— الآن لا بدّ من أن نفترق . وليس يصحّ أن نرجعَ معاً . فـدعني الآن انصرف .

وكان كلام وردة مصحوباً بلهجة الحزم . ثمّ وقفت وودعتهُ باحترام .

الفصل السابع

الادعاء

انَّ الدعوى التي أقامها طنوس على المعلم يوسف ، في محكمة جونية ، ما تطلّبتْ سوى جلستين : فانّ المحكمة اطّلعتْ حالًا على الحقيقة ؛ وشهد الطبيب الشيخ لويس الخازن بما رأى . فصدر الحكم بان لا يدفع المعلم يوسف الى طنوس سوى مبلغٍ زهيد ، تعويضاً عن تعطّلهِ بضعة أيّام . فخسر طنوس المبلغ الذي شاء المعلم يوسف أن يؤدّيه اليهِ بملءِ الخاطر ، وهو أُجرة السنة بكاملها .

ولمَّا بُلّغ طنوس الحكم ، صاح وأخذ يتهدَّد ويتوعّد ويقول : « سيرى المعلّم يوسف ، سيرى ! لأقتلنَّهُ ، ولو قُتِلت ! »

فسمعهُ الحاضرون ، فقالوا لهُ :

— ويلك ! لو وضع المعلم يوسف يدهُ عليك وضعاً ، لسحقك ! أتظنُّ نفسك أشدَّ قوَّةً منهُ ؟

ومرّت الأيّام ، واحوال يوسف على غاية ما يُرام . وقد ارتاح بالهُ من جهةِ تلك الدعوى ، وعكف على العناية بأرضهِ . وكان سليم يزداد نشاطاً في خدمة أبيهِ . وكان كلّما صادف وردةً ، يخبرها بوجيز الكلام أنّ أُمورهُ مع أبيهِ حسنة ، وأنّ الفرج صار غير بعيد .

وحدث ان المعلم يوسف انحدر يوماً الى جونية لشراء بعض الحاجات .

فتأخر فيها الى ما بعد العصر. ثم ركب بغلته، وعاد يقصد ميروبا. فلمّا وصل الى أكمةٍ قرب «بقعاتة عشقوت»، لمح في الظلام شبحاً ظهر لحظةً وتوارى. ورأت البغلة ذلك الشبح فأجفلت. فأمرّ يوسف يدهُ على رقبتها تأميناً لها وملاطفة؛ فاستأنست وأسرعت تعدو عدواً. وما هي غير بضع خطواتٍ حتى أبصر يوسف سُدًّا مصنوعاً من أغصان الشجر، سَدَّ الطريقَ أمامهُ. فحاول أن يوقف البغلة، ولكن كان الحين قد فات، فان البغلة كانت مندفعة في الركض، فصدمت السدَّ المذكور صدمةً قويّة، فتكسر بعض الاغصان وكانت لتكسُّرها طقطقة شديدة، فجُرحتِ البغلة في صدرها، وارتعبت وأجفلت وحادت عن الطريق فسقطت في هوّة، وسقط يوسف عن ظهرها سقطة قويّة؛ ثم وثبت وراحت تعدو جهة ميروبا عدواً سريعاً. أمّا يوسف، فلم يسمع لهُ صوت، وبقي على الأرض مرتمياً كأنهُ ميت.

...

كان يوسفيّة ووديعة وسليم ينتظرون رجوع المعلم يوسف. ولم يشغل بالهم في أول الأمر، لانهم كانوا عارفين أنَّ لهُ في جونية أشغالاً كثيرة، وانهُ لم يتمكّن من ترك جونية قبل العصر. ولكن، لمّا غابت الشمس وحلَّ الظلام، وساد السكون على القرية، بدأوا ينصتون ليسمعوا رنين صوت جلجل البغلة؛ فلم يسمعوا شيئاً. وطال انتظارهم، حتى اضطرب بال يوسفيّة، فكانت حيناً بعد حين تخرج الى الطريق وتتسمّع، ولكن دون جدوى. وكانت وديعة، خوف الضجر، تقلّب ورقات كتاب في يدها، وسليم يشرب «سيكارة» كانت قد انطفأت منذ زمان.

ثمَّ تنهّدت يوسفيّة وقالت:

— ربِّي ! متى يصل ؟

فهتفت وديعة :

— هذا هو ! قد سمعت صوت الجلجل.

فخرج الجميع من البيت . وكان الجلجل يدقّ في الطريق دقّاتٍ سريعة ، ثم وصلت البغلة فجأةً ووقفت في فناء البيت .

فقالت يوسفية :

— قد شغلت بالنا ، يا يوسف ! فلماذا تأخّرت الى الآن ؟

فلم يجب أحد . وكان بيد سليم مصباح ، فحوّل نورهُ جهة البغلة ، فاذا هي بغير راكب .

فصرخت وديعة صرخة جزعٍ ، وكادت الأمّ تسقط على صدر سليم مغشيًّا عليها . ولم يكن سليم أقلّ جزعاً ، فأسرع الى البغلة فوجدها ترتجف ، ورأى الجرح في صدرها . فتمثّل لاعين يوسفية وابنتها مشهدٌ مخيف وأدرك الجميع أن قد حدث ليوسف حادث هائل ! وتعلّقت الأم بكتف ولدها وهتفت :

— سليم ! ولدي سليم !

فعانقها سليم وقال :

أنا هنا ، يا أمّي ! لا تخافي !

وكان الياس ، الاجير الصغير ، واقفاً على عتبة الباب جامدًا شاخصاً . فناداهُ سليم :

— أسرع الى جارنا ابرهيم ، وقُلْ لهُ ليأتِ حالاً مع ولديهِ ، حنّا ويعقوب .

وحمل سليم أُمّهُ وأدخلها الى البيت وعانقها ثانيةً وقال لها :

— أُمّاه ! لا تضطربي . ها أنا ماضٍ مع جيراننا لنرى ما الأمر .

وحضر ابرهيم وولداهُ ، وجدّوا في السير ، وسليم يتقدّمهم .

وامتلأ البيت من الجيران ، وبات الجميع يتوقّعون رجوع سليم ورفقائه ، وهم على أحرَّ من الجمر .

وبعد ساعة ، سمعوا أصواتهم . فخرج مَن في البيت لملاقاتهم . فاذا المعلم يوسف محمولٌ على محمل من أغصان الشجر . فأدخلوهُ الى البيت . وأسرعت يوسفيّة ووديعة وهما في حالة يُرثى لها .

وهتفت يوسفيّة ، باكية :

— مات ! . . .

اجاب سليم :

— لا ! لكنهُ جريح .

وسأل الحاضرون :

— ماذا عرض لهُ :

اجاب سليم :

— ليس هذا بعارض ؛ بل هي جريمة ! فقد سَدَّ الاثيمُ الطريقَ بسُدٍّ من أغصان الشجر ؛ ولا بُدَّ أن البغلة صدمت السُدَّ فسقط معلّمي عن ظهرها .

فتأثّر الجميع واستاؤوا استياء عظيماً .

ثم ارتفع صوتٌ وقال :

— هو طنّوس ، صاحب هذهِ الجريمة العظيمة !

فهتفت وديعة :

— نعم ! هو ، هو بعينهِ ! فانهُ ، منذ انتهاء الدعوى ، ما برحَ يتهدَّدني .

وجاء كاهن القرية ، وحضر الطبيب ، الشيخ لويس الخازن ، وأسرع الأخ نعمة الله ، المرسل اللبناني الغيور ، يُساعدهُ في معالجة الجريح . فغسلا الجراح ، وأزالا التراب عن رأس ووجه ذلك المسكين . ثم أخذ الطبيب

ينعشهُ بالأدوية اللازمة . وكان لتلك الزوجة المسكينة ولوديعة وسليم هيئة مؤثرة .

وبعد حين ، تنهَّد يوسف وتحرَّك ، وأفاق من إغمائهِ . ورأى الحاضرون أنَّهُ غير عارفٍ بما جرى لهُ ، لأنهُ فتح عينيهِ ، ونظر الى من أمامهُ ، وأغمضهما حالاً وتنهَّد ، ثم غاص في رقادٍ عميق ، وظهرتْ في وجههِ آثار حمّى .

فقالت وديعة ، والدمع في عينيها :

— ما هـذا الرقاد ؟ آه ! يا أبي الكاهن ، أنا خائفة ! انظروا ما أشدّ احمرار وجههِ !

اجابها الكاهن :

— لا تضطربي ، يا ابنتي . أتحسبين أنَّ أباكِ بعد هذهِ السقطة ، يستطيع ان يحدّثكِ حالاً . هو الآن تعِب ، ولا بدَّ لهُ من الراحة .

وقال الطبيب :

— لا تجزعوا . ليس في الامر ما يشغل الخاطر : الساق فقط مكسورة ، والذراع اليمنى مخدوشة ، والجرح في الجبهة سطحيّ .

وكانت يوسفيّة قد تشدَّدت ، فأسرعت الى مساعدتهم في الخدمةِ وتقديم ما يلزم ، وقلبُها ، مع ذلك ، لا يزال يخفق خوفاً على حياة زوجها .

واستمرّ أهـل البيت ثلاثة أيام مضطربي الخاطر : فان الحمّى بقيت مشتدَّة على الجريح . فكان ، حيناً بعد حين ، يهذي في الكلام ، ويوبّخ شخصًا غير منظور ، ويكرّر من إعادة اسم « طنّوس » ؛ ويوسف ما عرف طنّوس في الظلام ، حين اعترضهُ في طريقهِ ؛ لكنَّهُ كان يراهُ وهو في ذلك البُحران .

ولمَّا وصل اليوم الرابع ، سقطت الحمّى ، واستفاق يوسف من غَشَيانهِ .

وكان الشيخ لويس قد عصب الساق المكسورة ، وجبرها . فبدأ المريض يشعر براحة .

واهتمّ شيخ ميروبا ، والشيخ اسكندر الخازن للأمر ، وأرسلا فأخبرا الحكومة بما حدث ، فأسرعت الجنود وأخذت تفتّش عن المجرم . ووقعت الظنون على « طنّوس » . ومما زاد في اثبات وقوع الجرم منهُ ، أنّهُ اختفى عن الأنظار ، منذ وقوع الحادثة .

ولمـّا صار المريض في حالة يمكنهُ معها الكلام ، سألوهُ عن التفاصيل ؛ لكنّهُ ما قدر أن يفيدهم شيئاً مهمًّا ؛ وقال انهُ شاهد شخصاً في الظلام ، ولم يستطع أن يعرفهُ ؛ لكنّهُ حقّق ان ذلك الشخص قصير القامة ، يُشبهُ طنّوس .

ان « شمونة » — ولا ريب — كانت تعرف بمخبإ ولدها ؛ وقد سألوها عنهُ عدّة مرار ، فلم تُفدهم شيئاً . فأقامت الحكومة رقباء حول بيت شمونة ، حتى اذا عاد اليهِ طنّوس ليلًا ، قبضوا عليهِ . وقد فتّشوا عنهُ في جميع القرى المجاورة ، وفي الغابات ، وطافوا حول نبع العسل ، ونبع اللبن ، وتحت جسر الحجر ، فلم يجدوا لهُ أثرًا .

فجزموا بأنّهُ ترك تلك النواحي ، خيفة الوقوع في يدِ العدالة ، وأنّهُ رحل الى بلادٍ أُخرى .

وتنهّدت يوسفيّة يوماً وقالت :

— إذن نجا المجرم الخبيث ؟ آه ! وددتُ أن أراهُ ، والسياطُ تتساقط عليهِ !

اجابها يوسف :

— ليرحلْ الى حيث شاء ! لقد ارتاحت منهُ ميروبا ؛ وحسبنا !

وكان القرويّ الشيخ يتحسّر لأنّهُ لا يستطيع المشي والرجوع الى العمل .

لم يمرض في حياتهِ ، وهو الآن يشعر بيأس ، حين يفكّر في أنّهُ ، إطاعةً لأمر الطبيب ، يجب أن يلزم الفراش بضعة أسابيع .

وكان كاهن الرعيّة يعودهُ في كلّ يوم . فقال لهُ يوسف :

— ما هذا الشقاء ! ليتني متُّ ، ولم تُكسر ساقي !

اجابهُ الكاهن :

— ماذا تقول ، يا يوسف ؟ ألا تدري انّ هذا تجديف على الله ! أنسيت أنك مسيحي ؟

— لا ، لم أنس أني مسيحي ؛ ولكن ماذا عملت حتى ابتلاني الله بهذا البلاء ؟

— هذا ايضاً تجديف ثانٍ . إعلم ، يا عمي يوسف ، ان جميع الناس يمكنهم في ساعات البلوى ، أن يطرحوا هذا السؤال ويجدوا عليهِ جواباً . وأنت لستَ غير شكل عن الناس . كل أحدٍ عندهُ ما يجب ان يكفّر عنه !

ففكّر يوسف في هذه العبارة « كلّ احد عندهُ ما يجب ان يكفّر عنهُ ! » فأغمض عينيهِ وراح يُفكّر . وقد اتّسع له مجال للتأمّل ، وهو مضجع في سريره ؛ فكان يسأل نفسهُ ذلك السؤال ، ويجدُ الجواب عليه .

وأمسى كثير الهواجس . وصار مطيعاً لمن يعتنون بهِ كلّ الإطاعة ، ولا يتذمّر من شيء ، بعد أن كان ، فيما مضى ، يفقد الصبر ، اذا وجد اقلّ شيء على خلاف الطلب . وكان يظهر كأنهُ يلتمس العفو عن المشقّة التي يسبّبها لأهل البيت . وكثيراً ما كان يلثم يدي امرأتهِ ، اذا دنت منهُ لتصلح لهُ الفراش .

ومنذ وقوع الحادث ، لم تستطع يوسفية أن تغادر زوجها ، وعادتْ غير قادرة على القيام بحاجات البستان والحيوانات . وكانت وديعة تلازم البيت لتساعد امّها في الخدمة . وعرفت وديعة ان سليم هو أخوها ؛ لكنّها لم تقل

شيئاً؛ ولم تكن الفرصة اذ ذاك ملائمة للكلام في ذلك. ولم تدهش من اطلاعها — بل لم يكن لها وقت للدهش — لكن وجود ذلك الشاب كان لها ولأمها أكبر معين. ولولاهُ، ما قدرتا على أن تقوما بكلّ ما كان يحتاج الجريح اليهِ. وكتبتِ الامّ الى ولدها الراهب تخبرهُ عمّا حدث لأبيهِ؛ لكنّ الاب بولس كان حينئذٍ في الرياضة السنويّة، فلم يستطع المجيء. وسليمة كانت، بسبب طفليها، لا تقوى على الحضور من «وطا الجوز» إلاّ نادراً. لكنّ سليماً كان أبداً حاضراً، يعتني بأبيهِ عنايةً تفوق الوصف. وكان كلّما وجد أباهُ مرتاحاً أو نائماً، يُسرع الى الحيونات والى البستان ويقوم بكلّ ما يجب أفضل قيام، ثم يعود الى أبيهِ. ومتى احتاج المريض أن ينتقل الى فراش آخر، ينحني سليم عليه، والاب يطوّق عنقَ ابنه بيده، ويبسط الابن ذراعهُ تحت كتفي أبيهِ، والأُخرى تحت رجليه، ويحمله الى الفراش الثاني، متأنّياً كلّ التأني، كي لا يحرّك الساق المكسورة. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، لأن العمّ يوسف كان عظيم الجثّة؛ لكنّ سليماً قوي الجسم شديد العافية، فكان يبدو كأنهُ حاملٌ على ذراعيهِ طفلاً. ثم كان يصلح لهُ الفراش ويغطيه باللحاف او بالملاحف، ويحسن وضع الوسادات تحت رأسه كي يكون ابداً في راحة. فكان المريض ينظر اليهِ، وكثيراً ما كان يقول لهُ بصوتٍ متأثر:

— انت تخدمني وتعتني بي عناية الابن بأبيهِ.

فكان سليم يتبسم وينصرف الى عمله.

وحدّث يوسف سليماً في ان يتخذ لهُ معيناً في اشغال البستان، فلم يرضَ وكان ينهض قبل الفجر، وينام متأخراً جداً، ويشعر، مع ذلك، بسرور وراحةِ قلب. وهو الذي باع الغلّات الصيفيّة، وقام بقطاف الكروم، وعصر العنب، وعمل الدبس والزبيب والعرق، وجنى التفّاح وأرسلهُ مع المكارين الى بيروت، فبيع بثمن جيّد.

وتحسّنت صحة المعلم يوسف ، وقاربت ساقهُ البرءَ ، فقال له الشيخ لويس :

— يمكنك ، يا يوسف ، أن تتمشّى في الغرفة .

— هل اظلُّ أعرج ، يا جناب الشيخ ؟

— هذا يشغل بالك ؟

— نعم ، فإني لا اتمنّى أن استمرّ أعرج . فذلك يزيد في شيخوختي عجزاً .

— لا . كن مطمئن البال ، فان العرج يزول ؛ وستصير مستقيم القامة صحيح الساق ، كما كنت من ذي قبل ؛ ولكن لا تمشِ خارج البيت في هذه الايام . سأقول لك متى حان وقت ذلك .

فصار المعلم يوسف يسعهُ أن يجلس على الكرسي ، ويتمشى قليلاً في البيت . وكان قد سئم الإقامة بين جدران المنزل ، واشتاق الى استنشاق الهواء الطلق ؛ لكنّهُ خاف عاقبة مخالفة أمر الطبيب . فكان يجلس على كرسيٍّ في احدى زوايا البيت ، ويقلّب افكاراً ليس فيها ما يفرح ، وينظر الى جبينهِ يزيد تجعُّداً .

وكان جميع أهل البيت يشتغلون في البستان ؛ وهو ، المعلّم ، لا يستطيع عملاً ، ولا يصلح لشيء .

هو لا يُدير الآن شؤون الحصاد ، ولا يُعِدُّ للأرض ذلك البذار الجيّد ، رجاء الغلّات المستقبلة . يا لها من أفكار تُوجع قلب ذلك الشيخ ! كان ، فيما مضى يشعر بلذّة عظيمة عند تخمين الأَراضي المحروثة والتنقُّل في الحقول والغابات ، ولا سيّما حين كان بيدهِ يبذر البذار في الهواء ويفعل ذلك بحركةٍ فخمة ، كأنّهُ يبارك ذلك البذار الذي يُعطي الحياة للعالم . هل يُحسن أجيرهُ «حبيب» بذْر الأرض ؛ وهل يعرف جيّداً طبيعة الأرض فيعطيها الكمّية اللازمة من البذار ؟ آه ! لو كان ولدهُ بولس هناك ! . . . وآه لو لم يهجرهُ سليم ! بولس لبّى صوت الرب

للترهّب، وسليم سافر، وصار الأب لا يفتكر فيه.

ولكن، هل كانت كلّ هذه الافكار حقيقية؟ أما كان ذلك الابن، الشبيهُ بالابن الشاطر، يُغمّ قلب ذلك الشيخ القروي، ويجعل ظهرهُ يزيد كلّ يوم تحدُّباً؟ اذا وصل الانسان الى عتبة الشيخوخة، واذا رأى الموت قريباً، تتغيَّر أحكامهُ في الأمور ويصير ينظر اليها بخلاف ما كان ينظر اليها حين كان شاباً قوياً. في هذا السنّ، سنّ الشيخوخة والعجز، يبدأ المرء يتجرّد من الأرض؛ والأميالُ والاهواء فيهِ تخمد؛ وتلك المشاحنات والاحقاد التي كان يهتمُّ لها الانسان فيما مضى، تبدو لهُ الآن تُرّهات صبيانية، ازاء ما يرى أمامهُ من الأمور الابدية. لم يفكّر يوسف الشيخ في جميع هذهِ الأمور، ولكن كان يشعر بها.

وقال يوماً لامرأته:

— ويحك، يا يوسفيّة، لولا عناية الله لكنت الآن في القبر.

— دعّ عنك هذهِ الأفكار، وأشكر الله على عنايتهِ.

— أنا غير خائف من الموت؛ ولكن لولا رحمة الله، لكنت متُّ دون استعداد. يا يوسفيّة، قد سبَّبتُ لك في بعض الاحيان أكداراً؛ ولذلك أشكر الله ايضاً لانّهُ أنقذني: فإني لا أُريد أن أموت قبل أن التمس منك المغفرة.

فدمعت عينا الزوجة، وقالت:

— لماذا تقول لي هذا الكلام، يا عزيزي يوسف؟ وقد كنتُ معك دائماً سعيدة، ولم اندم قطّ على اتخاذك رجلاً لي، فإني لم أرَ منك الاّ كلّ صالح وحميد.

— أنا عارف أنّي كنت جافّاً. كان يعدّني الناسُ رجلاً مستقيماً، وكنت افتخر بذلك؛ لكنّ المستقيمين لا يكونون دائماً محبوبين... يجب على

الانسان أن يكون اولاً لطيفاً، ثم مستقيماً عادلًا. اما انا، فقد كنت جافًّا، وقاسياً.

كان المعلّم يوسف يقول ذلك، وفي قلبه — ولا ريب — فكرٌ خفيّ؛ ولكنهُ لم يكشفهُ.

وصار يمكنهُ أن ينهض، ويمشي متكئاً على كتف سليم. ثم تشدّد وصار يخرج الى فناء البيت. وكان يوم خروجهِ الى خارج البيت يوماً مباركاً عنده، فانهُ استنشق الهواء الطلق، ذاك الهواء الذي كان من زمان طويل يشتاق أن يملأ منهُ رئتيهِ. وكان ذلك يومَ أحدٍ من آحاد شهر ايلول. فطاف بالبستان، متكئاً على كتف ولدهِ، وزار الاصطبل والمراح، فوجد كلّ شيء على غاية ما يُرام. ثم عاد وجلس على المقعد الحجري، أمام البيت. وحينئذٍ التفت الى سليم وقال له:

— بماذا أُكافئك عن جميع ما صنعت إليَّ من الخير؟

اجاب سليم:

— لا اطلب إلا بركتك.

— ذلك شيء قليل، وستحصل عليهِ.

— يا معلمي لا تُكثر من الوعود.

— كيف؟ جرحتني بجوابك. ها أنا الآن أمنحك بركتي ورضاي.

— لا، بل تمنحني ذلك حينما أطلبهُ منك. نعم، في ذلك الحين أرجو أ لّا تبخل بهِ عليّ.

— كُن على ثقةٍ بما وعدتك.

وكان سليم، في انتظارهِ البركة التي وُعِد بها، لا يُضيع وقتهُ. كان ينهض من النوم في الساعة الخامسة، ولا يرجع الى فراشهِ قبل العاشرة. وكان، اذا استيقظ، يُسرع ويعمل فنجان قهوة، كي لا يُزعج أمّهُ أو شقيقتهُ في نومها. ثم يخرج الى الاصطبل والمراح ويوزّع العلف على الحيوانات. وكان عليه

ايضاً أن يعتني بالدّجاجات والبقر والفدّان والنعاج ايضاً. وكانت النعاج وحملانها تبدأ من الفجر تثغو ثُغاءً هائلاً. وكان ينبغي لهُ ايضاً أن يرفع الزبل من المراح والاصطبل مرّة في كلّ ثلاثة ايام. واذا انتهى من جميع ذلك، ولم يبق عليهِ في البستان عمل، أسرع بالفدّان الى الحقل فيرى في طريقهِ الاجير الصغير مع البقر، وهو ماش مشيتها البطيئة الهادئة، فيصيح سليم بفدانه، ويسبق الاجير الى الفلاحة.

وكان سليم، اذا جاء وقت الرقاد، يضّجع في فراشهِ تعِباً؛ لكنّ التعب كان يظهر لهُ خفيفاً، لأن قلبه كان مرتاحاً، وضميرهُ في سلام. وعاد لا يتوق الى شيء؛ فان ما كان يتمنّاه، أصبح على ثقةٍ من الحصول عليه، وصار يتنعّم بهِ مُسبَقًا. كان يقوم بواجباتهِ، بجميع واجباتهِ، خير قيام؛ وفي ذلك ينبوع مسرّاتٍ لا تنوب عنها جميعُ المسرّات الوهميّة التي يظنّها الناس قائمة في غير إتمام الواجب.

وفي جميع تلك الاعمال العديدة، كان سايم يجد فرصةً يقابل فيها وردة، فتكافئهُ هذهِ بكلمة، أو نظرة تخفّف عنهُ اتعابهُ. ولقيها مرّة في الطريق، فسألتهُ:

- كيف الحال عندكم في البيت؟

— جيّدة. وأظنّ أنهُ يمكننا أن نحتفل بزواجنا، قبل عيد الميلاد؛ فما رايكِ؟

— الرأي لك.

— ينبغي أوّلاً أن أعرّف أبي بنفسي.

— اذن مسعاك ناجح؟

— نعم، وصار أبي لا يستطيع الاستغناء عني. ولكن أخشى أن لا يُوافق أبواكِ على عهودنا؟

— قد حدّثتها، وهما على رأيك.

مضت عدّة أيّام، وسليم مواظبٌ على عملهِ بنشاط، وخرج المعلم يوسف يوماً الى البستان متّكئاً على كتف ولده، يُمتّع العين برؤية الأرض والسماء. والتفت الى سليم وقال:

— حقّاً! ان البستان لم يحسّ بغيابي عنهُ، فقد بذلتَ فيهِ كلّ عنايتك.

— قد عملتُ ما استطعتُ عملهُ

— بل قد عملتَ فوق الواجب، واعتنيتَ بملكي كما اعتنيتَ بي، أنا، فسأذكر خدمتك هذهِ، ولن أنساها. أما أنت، فلم يبق لك إلّا أن تجزم بالبقاء عندي ما شئت.

— هذا كلُّ ما اتمنّى.

— ويمكنك أن تتزوّج هنا في ميروبا. وستتمكّن، ووبداً رويداً، من توفير مبلغ كافٍ، وتُحسّن حالتك وتنجح كما نجح غيرك.

— نعم لي أمل أن اتزوج هنا في ميروبا، وأكون أبداً في ظلّك.

— أتأسّف، لأن ليس لك هنا أهل يعتنون بك.

— عندي شيء آخر يستوجب أسفاً أعظم: وهو أنّ أهلي رشقوني باللعنة.

— لعنوك؟

— نعم، ولله ما أشدّ وطأة لعنة الأب على ابنهِ! يتألّم الابن اذا فقد والديهِ؛ لكنّهُ يسلّم الأمر الى الله، إذ لا سبيل إلّا الخضوع لما لا يُردّ، ويأمل أن يراهما يوماً في السّماء؛ وهذا الأمل يعزّيهِ؛ أمّا لعنة الأب او الأمّ، فتتبع الابن حيثما ذهب، وأين حلّ. إنّ ألمًا كهذا، لا تلطّفهُ الأيام ولا تخفّفهُ السنون.

فلم يجب يوسف بشيء.

ولمّا عاد الى البيت، وجد الأمّ تقفز فرحاً، فقد وصل مدّة غيابها،

رسالةٌ من الأَب بولس يخبر فيها أنَّهُ آتٍ الى البيت ليقضي عندهم ثلاثة أيام .

فرح سليم بهذا الخبر ؛ أمَّا يوسف ، فتقبَّل هذهِ البشرى ببرودةٍ أدهشت زوجتهُ . فلمَّا خلت بهِ ، قالت لهُ :

— ما بكَ ، يا يوسف ؟ ألستَ مسروراً بقدوم ولدك ؟

— نعم .

— إذن ؟

فأغمض يوسف عينيهِ ، وضمَّ يديهِ وقال متلجلجاً ، وبصوت منخفض :

— أغفر لنا خطايانا ، كما نحن نغفر لمن خطئ الينا .

— بماذا تفكِّر ، يا يوسف ؟ أكلّمك عن بولس ، وتجيبني أنت بالصلاة ؟

ففتح يوسف عينيهِ وقال :

— قولي لي ، أين سليم ؟

فدهشت وقالت :

— سليم ؟

— نعم ، فإني أُريد أن أراهُ .

— لماذا ؟ فاذا كنتَ تطلبهُ لتوبّخهُ ، فلا أقول لك أين هو .

— أُريد أن أراهُ لأغفر لهُ .

فانطرحت يوسفيّة على عنق زوجها وهتفت :

أحقاً تقول ؟ كنتَ لا تشاء أن يكلّمك أحدٌ عنهُ ؟

— نعم ، ولكن منذ شاهدتُ الموت قريباً منّي ، وأراني الأُمور على غير ما كنتُ أراها ، تغيّر قلبي وزال سُخطي . ربّي ! لو متُّ من غير أن أتمتَّع برجوع ولدي ! . . . قولي لي أين هو ، لأعانقهُ قبل أن أموت .

— لا تتكلّم عن الموت ، يا عزيزي . أمامك أيضاً من الحياة أعوام عديدة .

— عسى أن يمنّ اللهُ عليَّ بذلك؛ ولكن أُريد أن أرى الآن ولدي !

— ها أنا ماضيةٌ لأقول للياس ، فيذهب ويفتّش عنهُ .

وخرجتْ .

ولم يكن سليم في البيت اذ ذاك . وكانت الأُمّ عارفةً بأنّهُ خرج ليرى وردة ، وانهُ سيعود ليوزّع العلَف على الحيوانات . فرأت أن تُصبّر زوجها ، ريثما يعود ، فخرجت الى المطبخ ، ثم عادت وقالت ليوسف :

— سليم يأتي بعد حين .

— أين هو ؟

— ستعرف بعد قليل .

فاغتاظ يوسف وهتف :

— ما هذا السرّ ؟ !

ونظر الى امرأتهِ متعجّباً ، فقالت لهُ بشيء من الجرأة :

— قد انتظرتَ ثماني سنين ! ألا يمكنك الآن أن تنتظر ساعة ؟

— يوسفيّة ، لا تُحرجيني وتضيّقي صدري .

— أنا لا أُريد أن أُضيّق صدرك ، يا عزيزي . وإنَّ عندي ما عندك من الشوق الى رؤيتهِ ؛ لكنّي لا أستطيع الآن أن أقول لك أين هو ، وذلك لأسبابٍ ستعرفها فيما بعد . ليس يطول انتظارك ؛ في الساعة الثالثة يكون هنا .

في السّاعةِ الثالثة ، ظهر سليم في فناء البيت . ولكن كم بذلت يوسفيّة من المهارة والسياسة في تهدئةِ حدّة زوجها حتى وصلت تلك الساعة .

فلمّا أطلّ ابنها ، خرجت اليهِ خفية لتُطلعهُ على ما كان ، وقالت :

— سليم ، أبوك يطلبك !

— ماذا يُريد ؟

— هو لا يُطلب « حبيب » بل ولدهُ « سليم ».

— آه ! يا أمّاه ! . . .

— نعم ، يا ولدي الحبيب ، إنّ بلاياك قد انتهت . ولكن لنعجّلْ . لو تدري شدّة شوقهِ الى ان يراك !

ودخلت الامّ متكئة على ابنها ، وقالت ليوسف :

— تريد ان ترى « سليم »

اجاب يوسف :

— نعم !

قالت :

— ها هو ! . . .

نظر المعلم يوسف الى ذاك الذي عاملهُ ، مدّةً طويلةً ، معاملة أجير ؛ فسقط الحجاب الذي كان مُسدَلًا على عينيهِ ؛ ورأى ولدهُ كما عرفهُ من ذي قبل : جميلًا ، قويًّا ، شريفاً ، نشيطاً ، جديرًا بابيهِ . وادرك الحيلة الشريفة التي احتالتها امراته لتنتصر على قساوتهِ . فبكى .

وركع سليم أمام أبيه وقال :

أتريد أن تمنحني بركتك ؟

ففتح القرويّ الشيخ ذراعيهِ ، وارتمى سليم باكياً على صدر ابيه ، وقال :

— عفوًا ، ابتِ ، وصفحاً !

فهتف الشيخ :

— ولدي ! ولدي الحبيب !

وأغلق ذراعيهِ ضامًّا ولدهُ الى صدرهِ ضمًّا شديدًا ، كأنهُ يريد أن يريهُ انهُ يشاء أن يحفظهُ عندهُ دائمًا . وفي تلك الدقيقة المتضمّنة سعادة فائقة الوصف ،

أمكن الاب أن يتحقّق صدق الكلام الانجيلي القائل : إنهُ يكون في السماء فرح بخاطىء واحد يتوب ، اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون الى التوبة. »

. . .

بعد ثلاثةِ أيام ، دُعيتُ لحضور عرس سليم ووردة. فكان بيت المعلّم يوسف مزداناً بالرياحين واغصان التفّاح المثمرة. وأهل ميروبا وسائر القرى المجاورة وعددٌ كبير من المصطافين يملأون المنزل وساحة البيت والبستان ؛ ورقص الدبكة ، ولعب الحَكَم والسيف والترس ، تزيد أفراح ذلك اليوم.

ولمّا غابت الشمس ، كان العروسان واقفين أمام مائدةٍ عليها الانجيل والصليب ، وحولها الشموع مضاءة ؛ ويوسف ويوسفيّة وبنوهما ، وأبوا العروس وأهلها مغتبطون سروراً ؛ والكهنة ، وبينهم الأب بولس ، اخو سليم ، وعليهم الملابس البيعيّة ، وهم يتلون صلاة العرس. فنظرتُ الى وجهِ « سليم » فرأيتُ أنّ آثار تلك اللعنة قد امّحتْ ، وحلّتْ مكانها انوارُ بركة الأب على بنيهِ.

الخوري مارون غصن

إصلاح خطإ

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١	١	اللّعنة	البركة بعد اللّعنة
٢	٢	رواية	هذهِ رواية
٤	٨	أنهكهُ	أنهكاهُ
١١	٩	تزيد	تريد
١٢	٢٣	تتقق	تتفق
١٣	١١	عشقوب	عشقوت
١٦	٥	و	،
١٩	١٨	يحتاح	يحتاج
٥٥	٢٣	بخسة	نَجسة
٦٠	١٥	بأن	بأنهُ
٦٣	٥	فتأكّد	فيتأكّد
٧٧	١	يرَ	يرى

إصلاح خطأ

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١	١٠	اللّثة	الحركة بعد اللثة
٢	٣	رواية	هشم رواية
٤	٨	أنهكة	أنهكاهُ
١١	٩	تُيد	تُريد
١٢	٢٣	تتق	تتقِ
١٣	١١	مشقوب	مشقوت
١٦	٥	و	،
١٩	١٨	يحاح	يحتاج
٥٥	٢٣	نحبة	نحسبة
٦٠	١٥	بانّ	بأنّ
٦٣	٥	متأكد	فيتأكد
٧٢	١	لا	تلك

غصن، مارون
اللغة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037942

American University of Beirut

C.2

General Library

892.78
G4145lA
c. 2